أبـو عبـد اللهِ الشّيـعىّ

مؤسّس الدّولة الفاطميّة

Abū ʿAbd Allāh the Shīʿī
The Founder of Fāṭmid State

www.muhammadanism.org
February 8, 2010
Arabic

عَلي حُسنـي الخربـوطِلي
ʿAlī Husnī Al-Kharbūṭlī

أبـو عبـد اللهِ الشّيـعىّ

مؤسّس الدّولة الفاطميّة

تأليف

دكتور عَلي حُسنـي الخربـوطِلِي

١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

(أبو عبد الله الشيعى) هو بطل من أبطال التاريخ. وقد جمع من الصفات والقدرات، الشخصية والعامة، ما جعله في مقدمة رجالات العالم. فهو رجل عبقرى، اتصف بالذكاء والفطنة، وبالتدين والزهد، وبالتقوى والورع، وباللباقة والكياسة. اعتنق تعاليم الشيعة، وتشبع بحب آل البيت النبوي، وأعلن ولاءه للأئمة العلويين الاسماعيليين، ورأى أحقية الفاطميين في تولى الخلافة، فعاش حياته كلها من أجل تحقيق آرائه وأفكاره. وكافح وناضل سنوات طويلة حتى خرج بها إلى النور، وجعلها حقيقة تاريخية واقعة، فأصبح مؤسساً للدولة الفاطمية، التي كانت من أعظم الدول الإسلامية حضارة وأمجادا.

شهد التاريخ الإسلامي كثيراً من الثورات العلوية، طوال العصرين الأموي والعباسي، من أجل قيام خلافة علوية فاطمية. وجاهد أئمة علويون، وملايين من شيعتهم، في سبيل تحقيق هذا الهدف، وأزهقت أرواح، وسالت دماء، وامتلأت السجون بالشيعة، وتعددت الفرق الشيعية، ولجأت إلى المقاومة العلنية الإيجابية حينا، وإلى الدعوة السرية حينا أخرى. ولكن هذه المحاولات والجهود، باءت بالاخفاق، ولم ينجح الأئمة العلويون، بعد الإمام على بن أبي طالب، في الوصول إلى الخلافة، إذ استأثر بها خلفاء أمويون وعباسيون.

ثم استطاع رجل واحد بجهود فردية، معتمداً على ذكائه وعبقريته، وعلى لسانه وفطنته، أن يقيم صرح الدولة الفاطمية في بلاد المغرب. وهذا

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

الرجل، هو أبو عبد الله الشيعي، الذي أصبح جديراً بأن يصفه المؤرخ المقريزى بأنه «من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون، أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامة الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال».

ومما يؤسف له أننا لا نجد في مكتبتنا العربية كتاباً ينفرد بدراسة تاريخ أبي عبد الله الشيعى على أسس علمية منهجية، ولا نجد سيرته إلا في ثنايا دراسة المؤرخين والباحثين لتاريخ الدولة الفاطمية، رغم أن قيام هذه الدولة العظمى كان من ثمار جهوده. ولذا رأينا أن نعطى أبا عبد الله حقه في دراسة تاريخه المجيد.

ومما شجعنا أيضاً على القيام بهذه الدراسة، أن حق أبي عبد الله قد ضاع بين أهل السنة، وبين الشيعة. فأهل السنة ساخطون عليه لأنه شيعى مخلص، كانت جهوده هي أساس قيام دولة علوية فاطمية شيعية في المغرب، ما لبثت أن انتقلت إلى مصر، ومدت نفوذها إلى الشام وإلى أرجاء كثيرة في الجزيرة العربية، كما أن كثيراً من أهل السنة يشكون في نسب الخلفاء الفاطميين إلى السيدة فاطمة بنت الرسول ويسمونهم العبيدين، نسبة إلى عبيد الله المهدي أول الخلفاء، ويرى أهل السنة أن أبا عبد الله الشيعى هو الذي مهد ــ في رأيهم للعبيدين سلالة الداعية ميمون القداح، الفرصة للوصول إلى الخلافة.

أما الشيعة، فكثير منهم غاضبون أيضاً على أبي عبد الله الشيعي، إذ يرون أنه تنكر للخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، وأنه رفع لواء العصيان ضده، فأصبح بذلك خارجاً عن الطاعة، منبوذاً من الفاطميين وشيعتهم في كل زمان ومكان.

وهكذا كانت كتابات المؤرخين السنيين والشيعيين عن أبي عبد الله

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

الشيعى غير منصفة لهذا البطل العظيم. ولذا أصبح أبو عبد الله من الشخصيات الكبيرة التي ظلت دهراً «تبحث عن مؤلف». وقد رأينا أن نعطيه حقه بميزان دقيق، وبالعدل والقسطاس. فالحياد التاريخي هو دائما أساس كل بحث علمي منهجي.

ولذا أقول أني لم أكن في هذا البحث التاريخي سنيا، أو شيعيا، بل كنت مؤرخا محايدا، أعطى ما لقيصر لقيصر، وما لله لله. والله عز وجل موفّقنا في إبراز أمجاد أبطال تاريخنا الإسلامي، وهو ولى التوفيق.

دكتور علي حسني الخربوطلي

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

تمهيد

عرف ابن خلدون[١] الشيعة فقال: «اعلم أن الشيعة لغة هم الصحب والأتباع، يطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من الخلف والسلف على أتباع عليّ وبنيه رضي الله عنهم».

وفصل الشهرستاني[٢] تعريف الشيعة فقال: «الشيعة هم الذين شايعوا علياً رضي الله عنه على الخصوص، وقالوا بإمامته وخلافته نصاً ووصية، إما جلياً، وإما خفياً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده، وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، أو بتقية من عنده».

ووضعت جماعة الشيعة أسساً للخلافة أي الإمامة كما يسمونها فقالت: «ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة، وينتصب الإمام بنصبهم، بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين، لا يحوز للرسل عليهم السلام إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله». ولذا ترى الشيعة أن الإمامة أساسها «التعيين والتخصيص»، وترى الشيعة أيضاً «عصمة الأنبياء والأئمة وجوباً عن الكبائر والصغائر[٣]».

وبعد مصرع علي بن أبي طالب ظهرت جماعة الشيعة السبئية، وهم من غلاة الشيعة، فنادى عبد الله بن سبأ بالرجعة، فعلي قد صعد إلى السماء وسينزل إلى الدنيا وينتقم من أعدائه[٤].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، ص ٣٨.

(٢) الملل والنحل، جـ ١ ص ١٤٦.

(٣) المصدر السابق.

(٤) البغدادي: الفرق بين الفرق، ص ١٤٣.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

تطور حزب الشيعة تطوراً عظيما بعد حرب صفين ومقتل علي[١]. وصبغت مبادئ الشيعة السياسية بصبغة دينية[٢]. وبعد مقتل عليّ تكون حزب ديموقراطي تألف من العناصر العربية وانضم إليهم عدد كبير من الموالى. ثم كان لمقتل الحسين نتائج هامة في تاريخ الشيعة[٣] حتى أنه يمكن أن نقول إن الحركة الشيعية بدأ ظهورها في اليوم العاشر من المحرم، وهو يوم استشهاد الحسين[٤]. فقد اتجهت الشيعة بعد استشهاده اتجاهاً دينياً، بل غلب الجانب الديني في التشيع الجانب السياسي[٥].

بدأ التشيع فكرة بسيطة واضحة محدودة المبادئ. فكان كل «من وافق الشيعة في أن علياً رضى الله عنه أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحقهم بالإمامة وولده من بعده فهو شيعي، وإن خالفهم فيما عدا ذلك مما اختلف عليه المسلمون، فإن خالفهم فيما ذكرنا فليس شيعاً»[٦]. وتطورت آراء وتعاليم الشيعة في العصرين الأموي والعباسي نتيجة تغير الظروف السياسية وظهور الفرق الدينية والسياسية الأخرى[٧].

في العصر الأموي، تفرعت الشيعة إلى عدة فرق، أشهرها: السبئية، والإمامية، والكيسانية والزيدية[٨]. وقد اختلفت هذه الفرق في التفاصيل ولكنها

---

(١) انظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي) ص ١٠٩.
(٢) جولدتسيهر. العقيدة والشريعة في الإسلام، ص ١٧٥.
(٣) العراق في ظل الحكم الأموي، ص ١٢٢ (من تأليفنا).
(٤) حتى: تاريخ العرب، جـ ٢ ص ٢٥٣.
(٥) جولدتسيهر: العقيدة والشريعة، ص ١٧٦.
(٦) ابن حزم: الفصل في الملل والنحل، جـ ٢ ص ١١٣.
(٧) انظر كتابنا (العراق في ظل الحكم الأموي) ص ٢٠٦ ــ ٢٠٧.
(٨) الشهرستاني: الملل والنحل، جـ ٢ ص ٢٣٤.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

اتفقت جميعها في أن علياً أحق المسلمين بالإمامة، والقيام بالأمر في أمته[١].

أما السبئية فهم غلاة الشيعة، فقد غالوا في خلع الصفات على الإمام عليّ بن أبي طالب[٢]. أما الشيعة الإمامية، فقد اتفقت على أن الرسول قد نص على إمامة عليّ «باسمه وعينه ونسبه ونصبه للناس إماماً واستخلفه وأظهر الأمر في ذلك إلى غيره، وأن الأمة ضلت وكفرت بصرفها الأمر إلى غيره[٣]». والشيعة الإمامية تقول بعودة «إمام منتظر» ولكنها تختلف فيمن هو ذلك الإمام المنتظر. أما الكيسانية فقد ظهرت على يد المختار الثقفي ودعت لإمامة محمد بن على بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية[٤].

وفي أواخر العصر الأموي، ظهرت عدة فرق للشيعة نتيجة تطور مبادئ الشيعة السياسية والدينية. فقد اتجهت الشيعة إلى الدعوة السرية أو ما يسمونه «التقية والكتمان»، نتيجة اضطهاد الخلفاء والولاة الأمويين لجماعات الشيعة. ويبيح مبدأ التقية الاختفاء وكتمان العقائد، إذ تعرضت الشيعة للخطر أو الضرر. وبذلك أصبحت الشيعة أقدر الفرق الإسلامية على الدعوة السرية.

ونتج عن هذا التطور في آراء وتعاليم الشيعة ظهور فرقتين في أواخر العصر الأموي، وهما فرقتا الزيدية والهاشمية. أما الزيدية فقد نادت بآراء معتدلة[٥]. فيرى الإمام زيد بن علي جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل،

---

(١) ابن نشوان: الحور العين، ص ١٥٣.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢ ص ٤٠٤.

(٣) ابن نشوان: الحور العين، ص ١٣٥.

(٤) انظر كتابنا (المختار الثقفي) في سلسلة أعلام العرب تجد كثيراً من التفاصيل.

(٥) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ج ٢ ص ٤٦٦.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

والإمامة بعد زيد هي «في ولد فاطمة كائناً من كان بعد أن يكون عنده شروط الإمامة[١]». وترى الزيدية أن الإمامة مسألة عملية لا سلبية، فيجب أن يقود الإمام شيعته في الكفاح دون اختفاء أو كتمان[٢].

أما فرقة الهاشمية، فقد تفرعت عن الكيسانية، وأجمعت على أن محمد بن الحنفية قد أوصى إلى ابنه عبد الله بن محمد المعروف بأبي هاشم بالإمامة من بعده[٣]. وقد نظم أبو هاشم الدعوة، وجاهد في ضم صفوف الشيعة، سواء أكانوا غلاة أم معتدلين ما دام يجمعهم كراهية الأمويين. وانقسمت الفرقة الهاشمية بعد أبي هاشم إلى عدة فرق، أشهرها فرقة المنتظرين التي ترى أن أبا هاشم أوصى إلى ابن أخيه الحسن بن علي بن محمد بن الحنفية، وأن الحسن أوصى إلى ابنه علي، ولكن هذا الأخير مات دون أن يعقب ولداً، فهم ينتظرون رجعة ابن الحنفية. والفرقة الثـــانية العباسية، وترى أن الإمـــام بعد أبي هاشم هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذي يذهب إلى أن أبا هاشم قد تنازل له عن الإمامة[٤].

انفرد العباسيون بالخلافة سنة ١٣٢ هـ، وقامت ضدهم ثورات علوية متتابعة، أشهرها ثورة محمد بن عبد الله بن الحسن، المعروف بالنفس الزكية، في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور، وثورة الحسين بن علي في عهد الخليفة الرابع الهادي، وثورتي يحيى وإدريس ابني عبد الله في عهد الخليفة الخامس هارون الرشيد. وقد تولى كل هذه الثورات الشيعة الزيدية.

---

(١) ابن النديم: الفهرست، جـ ٢ ص ٤٥٦.

(٢) انظر كتابنا (تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي) ص ٢٠٩ ــ ٢١٠.

(٣) ابن نشوان: الحور العين، ص ١٥٩ ــ ١٦٠.

(٤) ابن نشوان: الحور العين، ص ١٥٩ ــ ١٦٠.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

أما الشيعة الإمامية، فقد تولى زعامتها في مطلع العصر العباسي، الإمام جعفر الصادق، وهو ابن محمد الباقر، وحفيد الإمام زين العابدين. وقد فضل هذان الإمامان الأخيران الركون إلى الهدوء والاشتغال بالعلم والدين. وأصبح جعفر الصادق الإمام السادس من أئمة الشيعة الإسماعيلية (٨٣ ــ ١٤٨ هـ). وكان يرى أن الخلافة من حق الأئمة أحفاد الحسين بن علي، بينما قام بالثورات العلوية أئمة من أحفاد الحسن بن علي. وقد اشتهر الصادق بالتقوى والعلم والزهد[١].

وبعد وفاة الإمام جعفر الصادق (سنة ١٤٨ هـ)، انقسمت الشيعة الإمامية إلى طائفتين: طائفة الإمامية الموسوية التي قالت بإمامة موسى الكاظم بن الإمام الصادق، وهو عندهم الإمام السابع[٢]، وقد نقلت هذه الطائفة الإمامة بعد موسى إلى ابنه الإمام علي الرضا، ثم إلى الإمام محمد الجواد، ثم الإمام على الهادي، ثم إلى الإمام الحسن العسكري، ثم إلى الإمام المنتظر، فيصبح الإمام الثاني عشر، ولذا يطلق على هذه الطائفة اسم (الشيعة الإمامية الاثنا عشرية)، وقد دخل الإمام محمد سردابا، ثم اختفى (سنة ٢٦٠ هـ) ولذا فشيعته تنتظر عودته[٣]

أما الطائفة الثانية، فهي طائفة الإمامية الاسماعيلية، التي قالت بإمامة اسماعيل بن جعفر الصادق، وهو أكبر أولاده. وكان الصادق قد خلع اسماعيل من الإمامة، ونصب ابنه موسى، نتيجة أمور نسبت لاسماعيل،

---

(١) الشهرستاني: الملل والنحل، ج ٢ ص ٢٧.

(٢) الفخرى، ١٧٨.

(٣) انظر كتاب فرق الشيعة للنوبختي، ص ٥٧ وما بعدها.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

لا مجال لمناقشتها هنا، ولكن طائفة من الشيعة تمسكت بولائها لاسماعيل ولم تعترف بتحويل الإمامة إلى موسى.[١]

توفى اسماعيل في حياة أبيه الصادق سنة ٤٥ هـ، فانتقلت الإمامة منه إلى محمد، فأصبح الإمام السابع، وتطلق على هذه الطائفة اسم (الإمامية السبعية) وبهذا الإمام يبدأ دور الأئمة المستورين، فقد استتر الأئمة، وتولى دعاتهم نشر الدعوة لهم. وكان ميمون القداح هو أشهر دعاة الإمام محمد ابن اسماعيل. وبعد وفاة هذا الامام انتقلت الامامة إلى ابنه عبد الله الرضى الذي استتر أيضاً واعتمد على كبير دعاته عبد الله بن ميمون القداح. وتتبع العباسيون هذا الإمام، فتنقل هو وابنه أحمد في كثير من الأمصار، ثم استقر في قرية (سلميه) في بلاد الشام، التي أصبحت (دار هجرة) الشيعة لأئمة الاسماعيلية.[٢]

ثم تولى الإمامة الإمام أحمد بن عبد الله الرضى، الذي اعتمد في الدعوة على عبد الله بن ميمون، واتسعت دائرة الدعوة الاسماعيلية في أرجاء العالم الإسلامي. ثم خلفه ابنه الامام الحسين الذي وجه اهتمامه إلى نشر الدعوة الاسماعيلية في بلاد اليمن، وقد تولاها الداعيان الكبيران ابن حوشب وعلي بن فضل منذ سنة ٢٦٨ هـ، ومن اليمن امتدت الدعوة إلى كثير من الأقطار الإسلامية[٣]. ثم رأى الإمام نشر الدعوة الاسماعيلية في بلاد المغرب، فاختار داعية هو (أبو عبد الله) وبعثه إلى ابن حوشب باليمن لتدريبه على وسائل الدعوة (سنة ٢٧٨ هـ).

---

(١) الشهرستاني. الملل والنحل، جـ ٢ ص ٢٨ وما بعدها.

(٢) النعمان: افتتاح الدعوة، ص ٣٣ وما بعدها.

(٣) المصدر السابق، ص ٤٠ ــ ٤١.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

١ ــ فجر الحياة

اعتاد الباحثون في التاريخ أن يلاقوا صعوبات شديدة في دراسة فجر حياة أبطال التاريخ، الذين كانوا في فجر حياتهم مجرد أفراد في مجموعات كبيرة، لا يعرف الناس ما تخبئه الأقدار لهم من شهرة وأمجاد. فلا يزالوا في أول الطريق، ولم تسلط عليهم بعد الأضواء الكاشفة التي تبرز عظمتهم وجهودهم. لذا فأخبار هؤلاء الأبطال في فجر حياتهم تكون عادة قلقة مضطربة.

ويظهر الاضطراب في تاريخ فجر حياة أبي عبد الله الشيعي، في كثير من الجوانب، أبرزها اختلاف المؤرخين القدامى حول اسمه. فنجد ابن خلدون في كتاب العبر[١]، والمقريزي في كتاب (الخطط)[٢]، يذكران أن اسمه هو «الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا». بينما نرى المقريزي في كتابه الآخر (اتعاظ الحنفا)[٣] والقاضي النعمان[٤] في رسالته (افتتاح الدعوة) يسميانه (الحسين) مع الاحتفاظ بباقي النسب. ونحن نؤيد التسمية الثانية التي ورد ذكرها في كثير من المصادر التاريخية الأخرى[٥]

واختلف المؤرخون الأقدمون أيضاً في الموطن الأول لأبي عبد الله، مثلما

---

(١) ابن خلدون: العبر. جـ ٣ ص ٣٦٢.

(٢) المقريزى: الخطط، جـ ١ ص ١٠.

(٣) المقريزى: اتعاظ. الحنفا، جـ ١ ص ٥١.

(٤) النعمان: رسالة افتتاح الدعوة، ص ٥٩ (طبعة بيروت ١٩٧٠).

(٥) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٣١، ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١ ص ٤٤٣ ــ ويأخذ أستاذنا الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٤٧) بالرواية التي تجعل اسم عبد الله هو (الحسن).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

اختلفوا في اسمه. فذكر القاضي النعمان[١] أن أصله من الكوفة، بينما قال المقريزي[٢] أنه من «رام هرمز»[٣] أما ابن الأثير[٤] وابن خلكان[٥] فيذكران أن أبا عبد الله من مدينة صنعاء باليمن. ويؤكد ابن عذارى[٦] هذه الحقيقة ويسمى أبا عبد الله بالصنعاني.

ويمضى المؤرخون في اختلافهم، فقد اختلفوا في الوظائف التي وليها أبو عبد الله قبل قيامه بدوره الكبير في نشر الدعوة الفاطمية. فقيل أنه كان محتسباً[٧] بسوق الغزل في البصرة، وقيل إنما المحتسب أخوه أبو العباس محمد[٨].

اشتهر أبو عبد الله باسم (المعلم) لأنه «كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية»[٩] كما اشتهر أبو عبد الله أيضاً باسم (الصوفى)، فقد كان يرتدي الخشن والمرقع من الثياب الصوفية[١٠]

ويطلق القاضي النعمان[١١] على أبي عبد الله أيضاً اسم (صاحب البذر)،

---

(١) افتتاح الدعوة، ص ٥٩.

(٢) اتعاظ. الحنفا، جـ ١ ص ٥١.

(٣) كتب ياقوت الحموى، اسم هذه المدينة متصلا، وذكر أنها تتألف من لفظين: (رام) وهي كلمة فارسية معناها (مقصود) أو (مراد) و(هرمز) وهو أحد الأكاسرة (انظر حاشية اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥١).

(٤) الكامل، جـ ٨ ص ٣١.

(٥) وفيات الأعيان، جـ ١ ص ٤٤٣.

(٦) البيان، جـ ١ ص ١٢٤.

(٧) خلاصة مهام المحتسب (الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر) انظر الأحكام السلطانية للماوردى.

(٨) ابن خلدون: العبر، جـ ٤ ص ٣١، المقريزي: اتعاظ. الحنفاء جـ ١ ص ٥١.

(٩) اتعاظ الحنفا، جـ ١ ص ٥١.

(١٠) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري، ص ٢٧.

(١١) افتتاح الدعوة، ص ٥٨.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

إذ نجح في بذر بذور الدعوة الفاطمية في أراضي بلاد المغرب، وتعهدها بالرى والعناية، حتى أتت ثمارها فقامت الدولة الفاطمية. وكان قد حرث هذه الأرض قبله أبو سفيان والحلوانى، الداعيان الشيعيان.

وأبرز المؤرخون صفات أبي عبد الله وعلمه ودهائه، فوصفه ابن الأثير[١] بأنه كان على علم وفهم ودهاء ومكر. ووصفه المقريزي[٢] بأنه «أحد رجالات العالم القائمين بنقض الدول وإقامته الممالك العظيمة من غير مال ولا رجال». ووصفه ابن عذارى[٣] بأنه كان ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة. وقال ابن خلكان[٤] عنه أنه كان من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون، ورغم انتقاد القاضي النعمان[٥]، في آخر رسالته، لموقف أبي عبد الله الشيعي من الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي، فقد قال عنه: «وكان ذا علم وعقل ودين وورع وأمانة ونزاهة».

---

(١) الكامل، جـ ٨ ص ٣١.
(٢) اتعاظ. الحنفا، جـ ١ ص ٦٨.
(٣) البيان، جـ ١ ص ١٢٤.
(٤) وفيات الأعيان، جـ ٢ ص ٣.
(٥) افتتاح الدعوة، ص ٥٩.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٢ ــ الأستاذ والتلميذ في اليمن

عرفت بلاد اليمن الدعوة الشيعية منذ العصر العباسي الأول، وأدرك الخليفة المأمون خطورتها على النفوذ العباسي، فقد قامت في اليمن في عهده حركتان شيعيتان[١]، وكان الدافع لأهالي اليمن في المشاركة في الحركتين، هو مظالم الحكم العباسي[٢]. ولما كانت بلاد اليمن بعيدة عن مركز الخلافة العباسية في بغداد، فقد رأى المأمون مواجهة انتشار التشيع في اليمن، بإقامة حكم قوي، فولى محمد بن إبراهيم الزيادى[٣]. وقد انتهج المأمون منهج أبيه هارون الرشيد حين اختار إبراهيم بن الأغلب لحكم أفريقية سنة ١٨٤ هـ، وأطلق يديه في حكمها، مما مهد لقيام دولة الأغالبة، وكان هدف الرشيد مواجهة دولة الأدارسة العلوية بالمغرب الأقصى[٤].

ووصل الزيادى إلى اليمن سنة ٢٠٣ هـ، ونجح في تثبيت أقدامه، وأختط مدينة (زبيد)[٥] وجعلها مركز حكمه. ومد نفوذه إلى تهامة وحضرموت والشحر ولحج وديار كنده[٦] ونجح الزيادى في إرساء قواعد دولة، تحكم اليمن، ويتوارث أبناؤه حكمها، ويكون لها استقلال ذاتي، مع استمرار ولائها السياسي للدولة العباسية.

---

(١) تزعم الحركة الأولى إبراهيم بن موسى سنة ٢٠٠ هـ، وتزعم الحركة الثانية عبد الرحمن بن أحمد سنة ٢٠٧ هـ، وهما من سلالة علي بن أبي طالب (الطبري جـ ٧ ص ١٢٤ ــ ١٥٤).

(٢) الطبري، جـ ٧ ص ١٦٩.

(٣) وهو من سلالة زياد بن أبي سفيان، المعروف بابن أبيه، وإلى معاوية بن أبي سفيان

(٤) انظر أخبار هذه الدولة في كتاب (الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى) جـ ١ طبعة الدار البيضاء سنة ١٩٥٤.

(٥) تقع مدينة زبيد في تهامة اليمن، وكانت تسمى في الأصل وادي يحصب.

(٦) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن، ص ٣٥ وما بعدها.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ولكن الدولة الزيادية ما لبثت أن تصدعت في عهد أبي الجيش اسحق بن إبراهيم الزيادى (٢٩١ ــ ٣٧١ هـ)، فثار عليه أسعد بن إبراهيم بن محمد بن يعفر واستولى على صنعاء وحكمها (٢٨٥ ــ ٣٣٢ هـ) كما ثار عليه يحيى بن القاسم الرسى المعروف بالهادي، الذي كان يدعو للزيدية، وأنشأ دولة بني الرسى في صعدة[١].

وهكذا أصبح في اليمن ثلاث دول صغيرة: الدولة الزيادية في زبيد، ودولة بني يعفر في صنعاء، ودولة بني الرسى في صعدة. وكان هذا الإنحلال هو السبب الذي جعل الدعوة الإسماعيلية الفاطمية الشيعية تجد طريقها إلى بلاد اليمن[٢].

وكانت الدعوة الإسماعيلية قد اجتازت دور الستر، وتبلورت ونشطت واتسع نطاقها. وكان أئمة الإسماعيلية قد اتخذوا مدينة (سلمية) من أعمال حماة ببلاد الشام مركزا لنشر دعوتهم، ومنها يوفدون دعاتهم إلى سائر الأمصار. وكان يطلق على هؤلاء الدعاة اسم (الحجج) أو (نواب الأئمة)، وبرز من بينهم شخصيات كبيرة كان يطلق عليها اسم (بحار الدعوة). وامتد نشاط هؤلاء الدعاة إلى بلاد اليمن والمغرب وفارس.

وكان ميمون القداح[٣] هو أول من اتخذه الأئمة المستورون حجة أو نائبا لهم، ثم خلفه ابنه عبد الله، الذي اشتهر كأبيه باسم القداح، وقد نجح في ضم صفوف الشيعة وتوحيد جهودهم، والإنطلاق بالدعوة الإسماعيلية، ورسم لها معالم الطريق، ووفر لها التنظيمات الدقيقة[٤].

---

(١) المصدر السابق، س ٣٨.

(٢) حسين بن فيض الهمذاني اليعترى: الصليحيون والحركة الفاطمية، ص ٢٨.

(٣) كان يشتغل بالقداحة أي طب العيون.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ ٢ ص ٢٤٧ وما بعدها.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

قسم عبد الله العالم الإسلامي إلى مناطق رئيسية، وجعل على كل منها واحدا من أبنائه أو أحد كبار دعاته المشهورين، ويتركز فضل عبد الله في أنه نقل الدعوة من دور التأسيس والتكوين وخلق المبادئ النظرية إلى دور العمل[١].

وبعد وفاة عبد الله بن ميمون. خلفه ابنه أحمد في قيادة الدعوة الإسماعيلية[٢] وقد وجه اهتمامه إلى نشر الدعوة في بلاد اليمن، فبعث إليها سنة ٢٦٨ هـ داعيتين من أكبر دعاة الإسماعيلية، وهما على بن الفضل اليماني وابن حوشب[٣].

أما ابن حوشب[٤]، فهو من أهالي الكوفة، وقد استدعاه أحمد بن عبد الله القداح إليه «وألقى إليه مذهبه فقبله، وسيره إلى اليمن، وأمره بلزوم العبادة والزهد، ودعا الناس إلى المهدي، وأنه خارج في هذا الزمان[٥]».

وابن حوشب هو أستاذ أبي عبد الله الشيعي، فيقول القاضي النعمان[٦] أن أبا عبد الله قد أخذ الدعوة عن ابن حوشب «وبآدابه تأدب». وتحدث النعمان عن ابن حوشب، فقال أنه من أهل بيت علم

---

(١) حسن إبراهيم وطه شرف: عبيد الله المهدي، ص ٦٧.

(٢) المقريزي: اتعاظ. الحنفا، جـ ١ ص ٢٦ ــ ويلقب أحمد بن عبد الله بأبي الشلعلع.

(٣) Kay. Yaman.., p. 225.

(٤) اختلف المؤرخون في تفاصيل اسم ابن حوشب فابن الأثير (الكامل جـ ٨ ص ٣٠) وابن خلدون (العبر جـ ٣ ص ٣٦١) يذكران أن اسمه هو (رستم بن الحسين بن حوشب بن دا دان النجار)، بينما يرى المقريزي أن الجد الأكبر هو (زا ذان). (اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤٠)، ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٣٢) أن اسمه هو (أبو القاسم الحسن بن حوشب بن زادان الكوفى).

(٥) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٤١.

(٦) افتتاح الدعوة ص ٣٢.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وتشيع»، وقد درس القرآن الكريم والحديث والفقه، وكان من أول أمره يعتنق تعاليم الاثنا عشرية أصحاب محمد بن الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر الصادق، وكان يعتقد أنه المهدي، ثم أصبح من أبرز دعاة الإسماعيلية، فصار يدعو للامام محمد الحبيب[١].

وهذا يدل على أن الاثنا عشرية كانوا دائما منهلا تنهل منه الدعوة الإسماعيلية، حتى إن كبار دعاتها ورجالاتها كانوا دائما من الاثنا عشرية، وكان من اليسير حينئذ التنقل من مذهب شيعي إلى مذهب شيعي آخر[٢].

اهتم الاسماعيليون بنشر دعوتهم في بلاد اليمن، مدفوعين بعدة أسباب منها بعد اليمن عن مركز الخلافة العباسية في العراق، وكان الخلفاء العباسيون قد ضيقوا الخناق على الشيعة جميعاً. كما أن الظروف السياسية في اليمن كانت تفسح المجال لانتشار الدعوة الإسماعيلية، نتيجة ما أصاب هذه البلاد من انحلال سياسي[٣] ولوجود فئات كثيرة من الشيعة، وخاصة الشيعة الزيدية، إلى جانب ميل كثير من أهالي اليمن إلى التشيع، مما يوجد أسسا وطيدة يمكن بناء الدعوة الإسماعيلية عليها.

كما كان الإسماعيليون يعتقدون أن بلاد اليمن هي الأرض الصالحة لإقامة دعوتهم، فيقولون: «البيت يمانى، والركن يمانى، والدين يمانى، والكعبة يمانية، ولن يقوم هذا الدين ويظهر أمره إلا من قبل اليمن[٥]».

---

(١) المصدر السابق ص ٣٣

(٢) حسن ابراهيم وطه شرف: عبيد الله المهدي ص ٧١.

(٣) الهمداني اليعبرى: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٢٩

(٤) الشيرازى: سيرة المؤيد (تحقيق د. محمد كامل حسين ص ٩٦٥).

(٥) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٣٨، الحمادى اليمنى: كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة ص ٢٢.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وصل ابن فضل اليمانى وابن حوشب إلى بلاد اليمن في أول سنة ٢٦٨ هـ، فأقاما باليمن سنتين يدعوان مستترين. ثم ظهرت الدعوة جهراً باليمن سنة ٢٧٠ هـ[١]

وبدأ الداعيان نشاطاً عسكريا من أجل السيطرة على بلاد اليمن، بعد أن نجحا في العامين السابقين في جذب كثير من اليمنيين إلى التشيع، بما أظهراه من تدين وتقوى وزهد[٢]. كما أن ابن حوشب تزوج من ابنة أحمد بن عبد الله بن ضليع أحد رجالات الشيعة في اليمن، مما ساعد على استمالة أنصاره إلى ابن حوشب[٣].

حمل ابن فضل لواء النشاط العسكرى، بينما كان معظم اهتمام ابن حوشب موجها نحو الدعوة. ونجح ابن فضل في السيطرة على مناطق واسعة في بلاد اليمن، وتوج انتصاراته بفتح صنعاء[٤]. كما استولى على مدينة زبيد مركز الدولة الزيادية[٥]. وسيطر على لحج، ودانت له قبائل مذحج بالطاعة.[٦]

ولكن ابن حوشب كان يرى تركيز الجهود في الدعوة، والاقتصاد في الفتوحات العسكرية، ولذا بعث إلى ابن الفضل، بعد فتحه صنعاء، يشير عليه بوقف الزحف العسكري. ولكن ابن فضل لم ينصت إلى نصيحة ابن

---

(١) النعمان. افتتاح الدعوة س ٤٤.

(٢) الهمداني اليعبري: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٣.

(٣) النعمان: افتتاح الدعوة س ٤٥. وكان ابن يعفر قد سجن أحمد بن عبد الله بن ضليع ومات في سجنه.

(٤) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١٦٨ وما بعدها.

(٥) المصدر السابق ص ١٧٠

(٦) الهمداني لليعبرى. الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٦.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

حوشب، مما جعل الداعيين يفترقان في طريقهما. فقد أعلن ابن فضل العصيان على أئمة الاسماعيلية، وهدد ابن حوشب بالقتال إن لم يدخل في طاعته[١]. وأراد ابن فضل تكوين دولة اسماعيلية مستقلة، أسوة بدولة القرامطة[٢] واشتبك الداعيان في معارك عنيفة، وانتهى الخصام بالصلح[٣].

واستمر ابن حوشب على اخلاصه للإمام الإسماعيلي، ومضى في جهوده من أجل الدعوة الإسماعيلية. فبنى حصنا بجبل لاعة، قرب عدن، وكان معظم سكان هذه المنطقة من الشيعة ويعرفون ببني موسى، وقد أمرهم ابن حوشب «بالاستكثار من الحيل والسلاح»[٤].

ومن عدن، بعث ابن حوشب ابن أخيه الهيثم إلى السند لنشر الدعوة الإسماعيلية[٥]. وانتقلت أخبار جهود ابن حوشب إلى الشيعة في بلاد العراق فهرعوا إلى بلاد اليمن، هرباً من وجه العباسيين. ولا غرو أن اكتسب ابن حوشب اسم «منصور اليمن» بعد هذه الانتصارات الرائعة.

وبعد هذه الجهود الواسعة النطاق، كتب ابن حوشب إلى الإمام محمد الحبيب يصف له مدى انتشار الدعوة الإسماعيلية، وأرفق بالرسالة كثيراً من الهدايا الفاخرة والأموال[٦]

---

(١) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١٧٠ ــ ١٧١.

(٢) الصليحون والحركة الفاطمية ص ٤٠ وما بعدها، تامر عامر: القرامطة ص ١٢٤ وما بعدها.

(٣) عمارة اليمنى: تاريخ اليمن ص ١٧٢.

(٤) المقريزى اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٥١.

(٥) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٤٥.

(٦) المقريزى: اتعاظ الحنفا ص ٤١، افتتاح الدعوة ص ٤٥ ــ ٤٦، الحمادى اليماني أسرار الباطنية ص ٢٧. قال النعمان إن الهدايا شملت طرائف اليمن وطرزها.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

واهتم ابن حوشب بنشر الدعوة الإسماعيلية خارج بلاد اليمن، فأرسل دعاته إلى اليمامة والبحرين والسند والهند ومصر والمغرب[١].

ووجه الإمام الإسماعيلي محمد الحبيب اهتمامه إلى بلاد المغرب، ورأى أن يكون نشر الدعوة الإسماعيلية فيها هي الخطوة الثانية بعد نجاح انتشارها في بلاد اليمن.

وكان رجلنا أبو عبد الله الشيعي قد بدأ اتصاله بالإمام محمد الحبيب الذي «رأى أهليته، فبعث به إلى ابن حوشب، صاحب اليمن، وأمره بامتثال أمره والاقتداء بسيرته، ثم يذهب بعدها إلى المغرب، ويقصد بلد كتامة[٢]».

لم يتجه أبو عبد الله الشيعي إلى المغرب مباشرة، فقد رأى الإمام أنه في حاجة إلى «دورة تدريبية» يتلقاها على يد أستاذ كبير له خبرته الواسعة في الدعوة الإسماعيلية، وقد أثبت نجاحه عملياً في نشرها في أرجاء بلاد اليمن.

وبدأ تتلمذ أبي عبد الله الشيعي على أيدي أستاذه ابن حوشب، منصور اليمن، الاستجابة لأمر الإمام الإسماعيلي. فقد كتب الإمام إلى ابن حوشب رسالة عهد فيها بأبي عبد الله إليه «يبصره، ويرشده ويلقنه»[٣].

وقدم أبو عبد الله على ابن حوشب، فلزمه، وشهد مجالسه، وأفاد من

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٤٧ ــ وبذكر النعمان أيضاً (ص ٥٣) أن داعية ابن حوشب في مصر كان أبو محمد عبد الله بن عباس وهو الذي استخلفه على الدعوة بعده

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا ص ٥١.

(٣) افتتاح الدعوة ص ٥٩.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

علمه[١]. ومما ساعد على توثيق الصلات بين الأستاذ والتلميذ، أن ابن حوشب كان يعرف أبا عبد الله من قبل، ويشهد له بالنبوغ والفضل، ولذا فإن ابن حوشب «قرب مجلسه، وأدنى مكانه، ورفع من قدره، وصحبه في جميع غزواته[٢]».

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥١.

(٢) افتتاح الدعوة ص ٦٠.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٣ ـ الحارثان وصاحب البذر

انتهت «الدورة التدريبية»، وآن الأوان ليتخرج أبو عبد الله الشيعي من «معهد» ابن حوشب لإعداد الدعاه الإسماعيليين في اليمن. أما العمل المناط به هذا «الخريج»، فهو الدعوة الإسماعيلية في بلاد المغرب، كما حدده الإمام محمد الحبيب حين بعث هذا «التلميذ المجتهد» إلى الأستاذ القدير في اليمن.

وكان الإمام موقناً أن بلاد المغرب هي المكان الصالح لتحقيق الآمال القديمة بقيام دولة إسماعيلية فاطمية علوية شيعية، حتى أن الإمام قال لابنه عبيد الله بعد أن سمع بانتصارات ابن حوشب في اليمن. هذه دولتك قد قامت، لكن لا أجد ظهورها إلا من المغرب»[١] كما قال الإمام أيضاً لولي عهده عن هذه الانتصارات: «هذه ثمرة أيامك وبركة دولتك»[٢].

ويروي المقريزي[٣] أن موسى الكاظم بن جعفر الصادق سئل عن ظهور القائم، فأجاب: «إن ظهور القائم مثله كمثل عمود من نور سقط من السماء إلى الأرض، رأسه بالمغرب، وأسفله بالمشرق». ثم يعلق المقريزي على هذه الرواية فيقول: «وكذلك كان بداية أمر المهدي عبيد الله، فإنه ابتدأ من المغرب. وانتهى أمره على يد بنيه في المشرق».

وحدد «الأستاذ»، منصور اليمن، ميقات انطلاق تلميذه النابغ إلى

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٢.

(٢) الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية ص ٣٧.

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٤.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

مهمته الكبرى، وهو «وقت خروج أهل اليمن إلى مكة للحج»[١].

ودقت ساعة العمل، وبدأ أبو عبد الله رحلته التاريخية، ليكتب اسمه في سجل الخالدين. والتقى ابن حوشب بتلميذه ليقول له: «إن أرض كتامة من المغرب قد حرثها الحلواني وأبو سفيان، وقد ماتا، وليس لها غيرك، فبادر فإنها موطأة ممهدة لك»[٢]. وأمد ابن حوشب أبا عبد الله بقدر كبير من المال، واختار له رفيقاً في سفره، هو عبد الله بن أبي الملاحف. وغادر أبو عبد الله اليمن في تكتم شديد وفي سرية تامة، فيقول القاضي النعمان[٣] أن ابن حوشب «كان إذا بعث رجلا لوجه من الوجوه، لم يعلم ذلك بمسيره أحدا من أهل ولا ولد، لا من قريب ولا بعيد، ولا يعرف أين يتوجه ولا أين سلك».

أصبح أبو عبد الله الشيعي هو «صاحب البذر» كما سماه الحلواني، وقد حفظ لنا القاضي النعمان هذه التسمية. وقد ظلت أرض المغرب محروثة، في شوق شديد إلى البذور، على مدى سنوات طويلة. اختلف المؤرخون في تحديدها، فيرى ابن الأثير[٤] والمقريزي[٥] أن الإمام جعفر الصادق قد بعث الداعيتين سنة ١٤٥ هـ فيكون بين دخولهما المغرب ودخول أبي عبد الله ١٤٣ سنة، بينما حدد القاضي النعمان[٦] هذه السنوات بمائة وخمس وثلاثين سنة.

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٦٠.
(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٥.
(٣) افتتاح الدعوة ص ٦٠.
(٤) جـ ٨ س ١١.
(٥) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٠.
(٦) افتتاح الدعوة ص ٥٨.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

فمن هما هذان الحارثان؟... ومن بعثهما إلى المغرب؟

يكاد يجمع المؤرخون الأقدمون على أن هذين الداعيين، أبي سفيان والحلواني، قد بعثهما الإمام جعفر الصادق[١]. ولكن صاحبي كتاب (عبيد الله المهدي)[٢] يخالفان هؤلاء المؤرخين، فيقولان: «إن إرسال الحلواني وأبي سفيان كان على يد ابن حوشب في عهد أحمد بن عبد الله القداح، وإن ذلك لا بد أن يكون بأمر الإمام الحسين وحجته أحمد بن عبد الله القداح، لأنه لا يعقل أن ينفرد ابن حوشب بأمر دونهما. كما نستطيع أن نفهم اجتهاد هؤلاء جميعا في نشر الدعوة الإسماعيلية في البلاد النائية، فقد أدركوا نجاحها في بلاد اليمن، ومن ثم عملوا على أن يضعوها موضع التجربة كذلك في إفريقية. كما نرى أيضا أن إرسالهما يجب أن يكون بعد سنة ٢٧٠ هـ، حيث نجح ابن حوشب في أداء مهمته وتسمى بمنصور اليمن».

ومع تقديرنا لاجتهاد المؤلفين الفاضلين في كتابهما القيم، فإننا لا نوافقهما على هذا الرأي. وإن من يقرأ رسالة الافتتاح للقاضي النعمان، المتوفى سنة ٣٦٣ هـ، والتي تم تحقيقها وطبعها ونشرها مؤخرا في بيروت سنة ١٩٧٠، ليجد كثيرا من التفاصيل حول هذين الداعيين، مما يمكن من أن يستنتج أنهما عاشا في عصر سابق تماما لعصر ابن حوشب. وخاصة أن النعمان يكتب بعد قيام الدولة الفاطمية، بقليل، فكتب في النصف الأول من القرن الرابع (سنة ٣٤٦ هـ) أي بعد مضي نصف قرن فقط على أحداث رسالته. وكان النعمان مطلعا على كل أسرار هذه الدعوة، فقد كان للنعمان قاضي قضاة الدولة الفاطمية، وهو أيضاً من كبار الدعاة الفاطميين.

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٠ ــ ١١، المقريزي: اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٥٠، النعمان: افتتاح الدعوة ص ٥٤.

(٢) حسن ابراهيم وطه مشرف: عبيد الله المهدي ص ٧٥

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

رسم الإمام جعفر الصادق الطريق أمام أبي سفيان والحلواني، فقد «أمرهما أن يبسطا ظاهر علم الأئمة من آل محمد صلوات الله عليهم وينشرا فضلهم، وأمرهما أن يتجاوزا إفريقية إلى حدود البربر، ثم يفترقان، فينزل كل واحد منهما ناحية»[١].

نزل أبو سفيان قرية تسمى «مرجمانة»[٢]، وفي مكان منهما يسمى «تالا» أو «تالة»[٣]، حيث ابتنى مسجدا، «وكان أهل تلك النواحي يأتونه ويسمعون فضائل أهل البيت صلوات الله عليهم منه، ويأخذونها عنه» وأصبحت مرجمانة «دار شيعة»[٤].

أما الحلواني، فقد رحل إلى منطقة (سوجمار)[٥]، فنزل ناحية تسمى «الناظور»[٦]، وتحدث القاضي النعمان عن جهوده فقال: «وكان في العبادة والفضل والعلم علما في موصفه، فاشتهر به ذكره، وضرب الناس من القبائل إليه، وتشيع الناس من القبائل إليه، وتشيع كثير منهم على يديه من كتامة[٧] ونفزة وسماته».

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٥٤.

(٢) وهي قرية قديمة في تونس، تقع على مرحلة من سبيبة (معجم البلدان جـ ٥ ص ١٠٩)

(٣) وهي مدينة تونسية قديمة لا تزال باقية حتى اليوم، وتقم على بعد ١٧ ميلا شرق الحدود الجزائرية.

(٤) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٥٥.

(٥) ذكر ابن الأثير (الكامل جـ ٨ ص ٣٩) أن اسم هذه المنطقة هو (سوق حمار) ولكننا نفضل لفظ (سوجار) كما ذكرها النعمان (ص ٥٧)

(٦) جنوب وادي بجاية على مرحلتين من قرية تاروت العامرة (انظر حاشية رسالة افتتاح الدعوة س ٢٥٧).

(٧) كتامة إحدى قبائل المغرب الكبيرة وأبناؤها من البربر وينتسبون على كتم بن برنس بن بر، وكانوا يعيشون في مكان حصين في جبل إبسكجان

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وبشر الحلواني أهالي المغرب بقدوم من يبذر الأرض التي حرثها هو وزميله أبو سفيان، فقال الحلواني: «بعثت أنا وأبو سفيان فقيل لنا: اذهبا إلى المغرب، فإنما تأتيان أرضا بورا فأحرثاها واكرباها وذللاها إلى أن يأتيها صاحب البذر فيعدها مذللة فيبذر حبه فيها»[١]

ثم مات الداعيان، وقد ماتا في وقت متقارب[٢]، وقد تركا أرضا صالحة تنتظر الحب الذي سيبذره فيما بعد أبو عبد الله الشيعي.

ونحن نتساءل: هل كانت جهود أبي سفيان والحلواني هي وحدها الأساس الذي أقام عليه أبو عبد الله الشيعي بناء الدعوة الفاطمية؟

والإجابة على هذا التساؤل بالنفى، إذ يفصل بين الداعيين وبين أبي عبد الله سنوات، تبلغ نحو قرن ونصف قرن. وقد تكون عوامل الطبيعة والتعرية قد لعبت في هذه الأرض فأخفت معالم الأرض التي اجتهد الداعيان في حرثها وتمهيدها.

ولذا نقول، أننا وإن كنا لا ننكر جهود وأفضال الداعيين في بث تعاليم الشيعة بين أهالي المغرب، إلا أننا نرى أن جهودها المشكورة لم تكن هي الأساس الوطيد الذي أقام أبو عبد الله عليه ذلك البناء الفاطمي الشاهق.

والحقيقة التاريخية أن ظروف الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في بلاد المغرب، كانت هي التي تجعل أرض المغرب صالحة لبذر أبي عبد الله الشيعي.

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٢١.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

لقد عرف أهالي المغرب تعاليم الشيعة منذ سنوات طويلة، على أيدي الأدارسة الذين نجحوا في إنشاء دولة علوية في المغرب الأقصى سنة ١٦٩ هـ، وقد رحب الأهالي من البربر بإنشاء هذه الدولة، التي حققت لهم رغبتهم القديمة في الخلاص من الحكم العباسي.

ثارت العصبية بين البربر، والعرب الذين سكنوا بلاد المغرب بعد الفتح الإسلامي. وقد كان البربر حينئذ أقل من العرب حضارة ورقيا، ونظر البربر دائما إلى العرب على أنهم «عناصر مغتصبة ودخيلة[١]». ومما زاد نيران العصبية بين الفريقين اشتعالا، افتقاد البربر للاستعداد الفكري لتقبل الحضارة العربية الإسلامية نتيجة كراهيتهم للعرب، ونظرتهم إليهم كعنصر دخيل عليهم، ورغبتهم في التحرر من الحكم العربي.

وهكذا كانت تلك الروح القومية عند البربر، تدفعهم إلى حركات انفصالية، وهي تشبه تماما تلك الروح القومية التي سادت بين الموالي الفرس في المشرق، في العراق وخراسان، ودفعتهم إلى القيام بحركات ثورية ضد الدولة الأموية التي انتهجت سياسة عربية واضحة[٢].

وكانت معظم مناطق بلاد البربر ــ عدا الشريط الساحلي الضيق ــ تتكون من بقاع رملية وتلال جرداء مجدبة، لا تفي للبربر بحاجاتهم الاقتصادية، ولا توفر الظروف الملائمة لقيام حضارة متقدمة. كما كانت فداحة الضرائب التي أثقلت كاهل البربر من العوامل التي جعلتهم يتطلعون إلى التحرر من الحكم العربي.

---

(١) Nicholson: *The Fatimite Dynasty*, p. 26.

(٢) انظر فصل الموالي في كتابنا (العراق في ظل الحكم الأموي) نجد كثيرا من التفاصيل.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ولكن تمرد البربر على الولاة، لم يكن خروجا على الدين، وإنما رغبة في التحرر من السلطة الحاكمة التي فرضت من الضرائب ما لم يفرضه الدين[١].

وتعالت أصوات البربر دائما بالأنين والتألم، ثم بالشكوى إلى الخلفاء العباسيين، ولكن صيحاتهم كانت صرخات في واد تبددها المسافات الطويلة التي تفصل بين بلاد المغرب، والعاصمة المركزية بغداد في بلاد العراق في شرق الدولة.

وكانت الدولة العباسية قد خلقت دولة الأغالبة لمواجهة دولة الأدارسة التي قامت على يد إمام علوي هو إدريس بن عبد الله الذي نجا من موقعة فخ في الحجاز في عهد الخليفة العباسي الرابع الهادي[٢]. وقد خلفه ابنه ادريس الذي «قام بأمر البربر، فولى أمرهم أحسن ولاية»[٣]. وقد اتسع نفوذ إدريس بن إدريس بن عبد الله، ووفدت عليه وفود البربر والعرب من أرجاء بلاد المغرب تعلن له تأييدها، وبدأ صراع عنيف بين الأغالبة والأدارسة، ووضع الأغالبة سياسة ترمى إلى إبعاد البربر عن تأييد الأدارسة[٤].

وكانت تعاليم الشيعة قد انبثت في قبيلة كتامة، وأصبحت هذه القبيلة الكبيرة تصلح لتكون أساسا لجهود أبي عبد الله الشيعي.

---

(١) حسن ابرهيم تاريخ الدولة الفاطمية ص ٤٥

(٢) المسعودي: مروج الذهب جـ ٣ ص ٣٣٦، الأصفهاني مقاتل الطالبيين ص ٤٥٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٦ ص ٦٠، الأصفهاني: مقاتل الطالبيين ص ٤١١.

(٤) يقول الناصري في كتاب (الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ١ ص ١٦٣): «وانتهى إلى ابن الأغلب وما عليه ادريس من الاستفحال، فأرهف عزمه على التضريب بين البربر واستغاوهم على ادريس»

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٤ ــ الرحلة التاريخية

غادر أبو عبد الله الشيعي ــ كما رأينا ــ بلاد اليمن في موسم الحج، قاصداً مكة، ومعه رفيقه عبد الله بن أبي الملاحف. ثم نغير هذا الرفيق، فحلّ مكانه آخر، وهو ابراهيم بن إسحاق الزبيدي، وهو من أهالي اليمن. فقد أصاب أم عبد الله مرض عقلي، وأصبحت في حاجة إلى رعاية ابنها. ولم يكن اختيار ابن حوشب لهذين الرفيقين موفقا، فيقول القاضي النعمان[١]: «ولم يكن ابراهيم هذا بمحمود الفعل، وكذلك كان ابن أبي الملاحف».

وخرج أبو عبد الله من «عدن لاعة» مع رفيقه، وبعث ابن حوشب بعض رجاله لتوديع أبي عبد الله ورفيقه، كما كتب إلى ولاة المدن والقرى الواقعة على الطرق بين اليمن ومكة، يوصيهم على داعيته ورفيقه. وجلس ابن حوشب في مجلس له فوق الجبل، يرنو بعينيه إلى أبي عبد الله وقد بدأ رحلته، ويشير ابن حوشب إليه بإصبعه، ويقول «وإن بين كتفيه لنجاة خلق عظيم[٢]».

انتهت مناسك الحج، واستقر الحجج في (منى)، وأخذ أبو عبد الله يتحول في أنحاء منى، يبحث عن حجاج كتامه، حتى وجد رحالهم، وأنصت إلى حديثهم، فوجد رجلين منهم، هما حريث الجميلي وموسى بن مكارمة، يذكران لأصحابهما فضائل علي بن أبي طالب رضى الله عنه.

وجلس أبو عبد الله إلى هؤلاء الكتاميين، يحادثهم

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٦١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) المصدر السابق ص ٦٣.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

حديثهم، وكان أبو عبد الله على نصيب كبير من العبقرية والزكاء والفطنة، يخاطب الناس على قدر عقولهم وميولهم، فهو يخاطب الوجدان كما يخاطب العقل، ولذا لا عجب أن حاز في ساعات قليلة إعجاب أهل كتامة وتقديرهم ولذا سألوه عن رحاله، فدلهم عليه.

وفي اليوم الثاني، قدم الكتاميون عليه في رحاله، «فحدثهم وأوسع في الحديث، وازدادوا فيه رغبة وعليه اقبالا، فجعل يسائلهم عن بلدهم فيخبرونه»[١].

نجح أبو عبد الله في الفوز بحب الكتاميين وثقتهم، وتفاءل من نجاحه في مهمته الكبيرة، فقد «وجد لديهم بذرا من ذلك المذهب»[٢].

وحانت ساعة الرحيل من مكة، فسأل حجاج كتامة أبا عبد الله عن وجهته، فقال أنه راحل إلى مصر، فأبدوا سرورهم، إذ أنهم يمرون بمصر خلال رحلتهم إلى وطنهم بالمغرب، ويمكن لأبي عبد الله أن يرافقهم في طريقهم من مكة إلى مصر، مما يتيح لهم فرصة الاستمتاع بعذب حديثه وبعلمه الفياض[٣].

وخلال الرحلة من مكة إلى مصر، أحاط الكتاميون أبا عبد الله بمظاهر التكريم والاحترام «وجعلوا يمشون حوله إذا سار، وينزلون بقربه إذا نزل، ويخدمونه ويعظمونه». حتى إذا اقتربوا جميعاً من مصر كان «أمره في كل يوم أمرا جديدا لم يكونوا سمعوا بمثله، ويستفتونه فيفتيهم، فمالت إليه قلوبهم»[٤].

---

(١) المصدر السابق.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ س ١٠ وما بعدها.

(٤) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٦٣.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ولم يهدف أبو عبد الله إلى استمالة حجاج كتامة إليه، أو الفوز بثقتهم وتقديرهم، فحسب، بل كان يسعى إلى أهداف أبعد مدى، فهو يريد الوقوف على الأحوال العامة على بلاد كتامة، فهي الأرض التي سيبذرها، كما أنها أرض مجهولة لديه لم تطأها قدماه.

فكان أبو عبد الله ينتهز كل فرصة تسنح له، فيسألهم من أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وعن المسافات بين الأماكن المختلفة، فهو يريد صورة واقعية توضح له أحوال السكان، وجغرافية البيئة. وكان أبو عبد الله ــ كعهدنا به دائما ــ ذكيا لبقا، فلم يشأ أن يثير شكوكهم، مما قد يجعلهم يتساءلون هم بدورهم عن دوافع تساؤلاته الكثيرة، فكان هو يخبرهم بأحوال البلدان والعشائر الأخرى[١]. فبدا أبو عبد الله للكتاميين أنه يريد بتساؤلاته عقد مقارنات بين أحوال المغرب وأحوال الأمصار الأخرى. وقد حفظ القاضي النعمان لنا تساؤلات أبي عبد الله، وإجابات الكتاميين[٢].

ودار الحوار بين أبي الله، وبين حجاج كتامة على هذا النحو:

أبو عبد الله: كيف طاعتكم للسلطان وحكمه عليكم؟

حجاج كتامة: ما له علينا من طاعة ولا حكم أكثر من أنا نقول إنه سلطان.

أبو عبد الله: وكم بينكم وبين موضعه؟

حجاج كتامة: مسيرة عشرة أيام.

أبو عبد الله: فبالقرب منكم أمصار؟

حجاج كتامة: نعم، ميلة[٣]، وسطيف[٤]، وبلزمة[٥].

---

(١) المصدر السابق ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق ص ٦٤ ــ ٦٦.

(٣) ميلة: مدينة بالجزائر تقع على بعد حوالي ٤٣ ميلا إلى الشمال الغربي من قسطنطينية.

(٤) سطيف: في الجزائر أيضا على بعد ٤٤ ميلا إلى الجنوب الشرقي من بجاية.

(٥) بلزمة: جنوب سطيف، على مربة من قسطنطينية. (انظر معجم البلدان لياقوت، وحاشية رسالة افتتاح الدعوة).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

أبو عبد الله: فلسلطان إفريقية بها عمال؟

حجاج كتامة: لا، فإنما بها رجال ملكوها، ما له عندهم أكثر من الدعوة على المنابر.

أبو عبد الله: فلهم عليكم طاعة؟

حجاج كتامة: لا، بل هم يدارون عن قرب منهم منا، ونحن الغالبون عليهم.

أبو عبد الله: فإلى من يرجع أمركم؟

حجاج كتامة: كل رجل منا في نفسه عزيز، ولنا أكابر منا في كل قبيلة وعندنا قوم نظروا في شيء من العلم، ومعلمون نستفتيهم في أمر ديننا ونتحاكم إليهم فيما يكون بيننا، فمن حكموا عليه ألزم نفسه ما ألزموه، وإن عند[1] عن ذلك قامت الجماعة عليه، وما وجب من أموالنا من عشر وصدقة أخرجناه نحن لأنفسنا فدفعناها إلى الفقراء فينا.

أبو عبد الله: فلا سبيل للسلطان عليكم في ذلك؟

حجاج كتامة: لا.

أبو عبد الله: فكم مسافة بلدكم؟

حجاج كتامة: مسافة خمسة أيام طولا في عرض مسافة ثلاثة أيام.

أبو عبد الله: فأنتم قبيل واحد؟

حجاج كتامة: يجمعنا اسم كتامة، ثم نفترق قبائل وأفخاذاً وبيوتات.

أبو عبد الله: فبعضكم ناء من بعض؟

---

(١) عند: بفتح الحروف الثلاثة.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

حجاج كتامة: ما بيننا كثير تباعد.

أبو عبد الله: فأمركم متفق؟

حجاج كتامة: لا، نحن نحارب بعضنا بعضا، ثم نصطلح بعد القتل، ويصالح القوم منا قوماً ويحاربون آخرين دأبنا.

أبو عبد الله: فإن دهمكم غيركم تجتمعون؟

حجاج كتامة: ما رام ذلك منا أحد قط.

أبو عبد الله: ولم؟

حجاج كتامة: لكثرة عددنا وامتناع بلدنا.

أبو عبد الله: وكم يكون عددكم؟

حجاج كتامة: ما أحصى ذلك أحد منا ولا من غيرنا، فيما علمناه.

أبو عبد الله: فعندكم الخيل والسلاح؟

حجاج كتامة: ذلك أكثر كسبنا وبه نفتخر وإياه نعتد، لحاجتنا إليه لما بيننا من حروبنا[1].

وصل الركب إلى مصر، وكان أبو عبد الله قد نجح في تكوين صورة كاملة واضحة متكاملة عن أحوال كتامة وبلادهم. وحانت ساعة الفراق، وبدأ أبو عبد الله في توديع أصحابه، وأبدى الكتاميون ألماً شديداً لفراقه، ثم سألوه: ما يقيمك ها هنا، وما نرى معك من تجارة، ولا هو بلدك؟ فأجاب: اطلب التعليم. فقالوا له: ما نرى أنك تجد بلداً أجدى عليك

---

(١) أورد المقريزي (اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٥٥ ــ ٥٦) بعض هذا الحوار، ولكننا رأينا الاعتماد على رسالة افتتاح الدعوة للنعمان حيث أوردت الحوار كاملا (ص ٦٤ ــ ٦٦).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

في التعليم من بلدنا. وأراد الكتاميون إقناع أبي عبد الله بقبول مرافقته لهم، فأخذوا يوضحون له مناهل العلم في بلادهم. وتظاهر أبو عبد الله بالحيرة، وأنه لا يستطيع اتخاذ قرار حاسم، فزادوا إلحاحاً حتى رضخ لرجائهم. وأبدى الكتاميون «سروراً شديداً». ثم اجتمع الكتاميون، وجمعوا بعض الدنانير، وقدموا على أبي عبد الله، وألحوا عليه في قبولها «لتقوى بها نفسه» فرفض قبول الدنانير في إصرار «فعظم في أعينهم وزادت هيبته في صدورهم[١]».

وبدأ أبو عبد الله رحلته التاريخية مرة أخرى، من مصر إلى المغرب. وهو الآن بين جماعة قد منحته ثقتها ومودتها وتقديرها، وهم الذين سيفتحون له أبواب بلادهم ليدخل إليها ثابت الأقدام؛ قوى البنان، ليبدأ مهمته التاريخية الخالدة.

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٦٧.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٥ ــ في المغرب

بدأ أبو عبد الله والكتاميون رحلتهم من مصر إلى المغرب، حتى وصلوا إلى طرابلس، ومنها إلى قسطيلية[١]. حتى وصل الركب إلى (سوجمار) حيث أقام بالأمس البعيد الداعي الأول الحلواني[٢]. وخرج حريث وموسى وكانا من حجاج كتامة من الشيعة، إلى أصدقاء لهما في سوجمار ممن يعتنقون المذهب الشيعي، وهم أبو المفتش، وأبو القاسم الورفجومى، وأبو عبد الله الأندلسي، يخبراهم بأمر أبي عبد الله. وقدم هؤلاء الثلاثة على أبي عبد الله يلحون عليه في النزول في ضيافتهم. ولم يشأ أبو عبد الله أن يغضب أحداً منهم، فلجأ إلى السهام، فخرج له سهم أبي عبد الله الأندلسي، فأصبح رجلنا أبو عبد الله ضيفاً عليه[٣].

وفي ليلة تالية، قدم هؤلاء الثلاثة مع حريث وموسى على أبي عبد الله. وتبادل الجمع الحديث «عن علم الشيعة وفضل أهل البيت»، حتى إذا قرب موعد فض المجلس قال أبو المفتش لأبي عبد الله: والله إني لأظنك صاحب البذر الذي يذكره الحلواني، فطلب أبو عبد الله منهم جميعاً «الصمت والكتمان[٤]».

ثم رحل الجميع إلى أرض كتامة، يوم الخميس ١٥ ربيع الأول سنة

---

(١) قسطيلية: مدينة وكورة كبيرة من تونس، وتقع على بعد خمسين ميلا إلى الجنوب الغربي من قفصة.

(٢) ابن خلدون: العبر جـ ٤ ص ٣٢.

(٣) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٦٨ ــ ويسميه ابن خلدون (محمد بن حمدون بن سماك الأندلسي).

(٤) افتتاح الدعوة ص ٦٩ ــ ٧٠.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٢٨٠ هـ[١]. وتنافس كل فرد منهم على الفوز باستضافة أبي عبد الله الشيعي، حتى كادوا يشتجرون ويتنابذون. ثم سألهم أبو عبد الله: أين يكون فج الأخبار؟ وأبدى الكتاميون تعجبهم إذ «لم يكونوا ذكروه له[٢]»، فأجابوه: عند بني سليمان[٣]. فقال أبو عبد الله: إليه تقصد، ثم نأتي كل قوم منكم في ديارهم، ونزورهم في بيوتهم، «رضى بذلك الجميع[٤]».

واتجه أبو عبد الله إلى جبل (إيكجان)[٥]، وفيه فج الأخبار. فقال هناك: «هذا فج الأخيار، وما سمى إلا بكم، ولقد جاء في الآثار: للمهدي هجرة به الأوطان، ينصره فيها الأخيار منه أهل ذلك الزمان، قوم اسمهم مشتق من الكتمان، وبخروجكم في هذا الفج سمى فج الأخيار»[٦].

وسمعت كثير من قبائل البربر عن أبي عبد الله، فقدمت عليه من كل مكان «فعظم أمره إلى أن تقاتلت كتامة عليه مع قبائل البربر، وهو لا يذكر في ذلك اسم المهدي»[٧]. بل كان يكتفي بالحديث عن فضائل علي بن أبي طالب وأولاده وأحفاده[٨].

---

(١) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٣٢، النعمان: افتتاح الدعوة ص ٧١. أما ابن خلدون (العبر جـ ٤ ص ٣٢)، المقريزي (اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٦) فيريان أن أبا عبد الله وصل إلى أرض كتامه سنة ٢٨٨ هـ.

(٢) المقريزي: اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٥٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٣٢، اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٦. بينما يذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٧٢) هؤلاء القوم فيسميهم (بني سكتان).

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ١ س ٥٦.

(٥) ايكجان: جبل قرب سطيف على مرحلة ونصف من بجاية وتسكنه كتامه.

(٦) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٧، افتتاح الدعوة ص ٧٣.

(٧) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٧.

(٨) المصدر السابق.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وتواترت أخبار أبي عبد الله حتى بلغت إبراهيم بن أحمد بن الأغلب، أمير إفريقية، فأرسل إلى عامله على مدينة (ميلة) يسأله عن أمر أبي عبد الله، وحقيقة أهدافه، فهون العامل من أمر أبي عبد الله، وحقيقة أهدافه، «وذكر أنه يلبس الخشن، ويأمر بالخير والعبادة، فسكت ــ الأمير ــ عنه»[١].

وما لبث أبو عبد الله أن صرح عن أهدافه الحقيقية، فقال، فقال: «أنا صاحب البذر الذي ذكر لكم أبو سفيان والحلواني»[٢]. ومن الطريف أن حريثا، الذي رافق أبا عبد الله طوال رحلته، قال له: «ما كان أطول سفرنا معك، ونحن في غفلة عن مثل هذا منك».

ناقش أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم حسن[٣] موقف البربر من المذهب الاسماعيلي، ومدى تقبلهم له، ودوافعهم إلى اعتناقه، فقال: اتخذ أبو عبد الله الشيعي «دار هجرة» في فج الأخيار في ايكجان، فأصبحت مركز حركته ومجمع أنصاره من البربر، ويرجع ذلك لسذاجة البربر وعدم استعدادهم لفهم مذهب الاسماعيلية بدرجاته المختلفة المتدرجة في الصعوبة، ولذا لم يتعمق البربر في فهم مذهب الإسماعيلية وتعاليمه التي تحتاج إلى إعمال الفكر، وإنما اعتنقوه لأول وهلة مدفوعين بعدائهم للأغالبة السنين، فلم يكن ثمة ما يساعد على رسوخه في نفوسهم، مما أدى بهذا المذهب إلى الزوال من بلاد المغرب، حتى لم يبق له الآن بقية أو أثر.

ونحن نرى أن بربر شمال افريقية كانوا مدفوعين في تشيعهم، بحبهم لآل

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٧٣.
(٢) اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٥٧.
(٣) الدولة الفاطمية ص ٤٩.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

البيت، حتى أنهم لم يفرقوا كثيرا بين هذا الحب وبين التشيع. وقد كان أساس دعوة كل من الحلواني وأبي سفيان ــ كما رأينا ــ الإشادة بفضائل آل البيت. كما أن أبا عبد الله ــ كما مر بنا ــ ظل فترة لا يتحدث إلا عن فضائل علي بن أبي طالب وأولاده، دون أن يصرح بحقيقة أهدافه. حتى أصبح اسم أبي عبد الله هو (المشرقى)، وأصبح اسم أتباعه هو (المشارقة)[١].

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٧٦.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٦ ــ دار الهجرة والمجتمع الشيعي

اتسع نطاق دعوة أبي عبد الله الشيعي، وتكاثر عدد أنصاره وشيعته. وإن كان الأمير إبراهيم بن أحمد بن الأغلب[١] قد أنصت بالأمس إلى رأى عامله في مدينة (ميله) الذي هون له أمر أبي عبد الله، إلا أنه اليوم أدرك خطورة الموقف، حيث تواترت عليه أنباء اتساع دعوة أبي عبد الله. إلا أن الأمير الأغلبي لم يفطن إلى حقيقة هذه الدعوة أو جوهرها، فرأى أن يقوم بحملة استكشافية.

بعث الأمير الأغلبي بابن المعتصم المنجم ليأتيه بخبر أبي عبد الله، وليبلغه برسالة شفهية منه. وجاء في أول هذه الرسالة تساؤل للأمير الأغلبي، هو: «ما حملك على سخطي والتوثب في مملكتي وافساد رعيتي والخروج على؟». ثم قال له أنه على استعداد لاشباع أطماعه في عرض الدنيا، وله حرية الاقامة أو مغادرة البلاد، ثم هدده في آخر الرسالة بالعقاب والهلاك إن استمر فيما هو عليه[٢].

وطلب أبو عبد الله من رسول الأمير الأغلبي ابلاغه برده، فهو لا يعبأ بالتهديد والوعيد، وهو واقف على مواطن الضعف في دولة الأغالبة، عارف بمظالم بني الأغلب، وهو لا يطمع في عرض الدنيا. ثم دعا أبو عبد الله الأمير الأغلبي ــ في آخر رسالته الشفهية ــ إلى طاعة الإمام عبيد الله المهدي، سليل الرسول عليه الصلاة والسلام[٣].

---

(١) حكم من سنة ٢٦١ إلى سنة ٢٨٩ هـ ويسمى الأمير إبراهيم الثاني.

(٢) انظر هذه الرسالة في كتاب افتتاح الدعوة للنعمان ص ٧٩.

(٣) المصدر السابق ص ٨٠ ــ ٨١.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وارتاع الأمير الأغلبي حينما نقل إليه رسوله حديث أبي عبد الله الشيعي. وزاد من خطورة الموقف تشيع بعض أبناء البيت الأغلبي وبعض خاصتهم، حتى أن الأمير حين ولى إبراهيم بن علي بن أبي حجر على (قفصه) وقسطيلية، وأمره أن يسير في أهلها بسيرة (العمرين)[١] قال إبراهيم له أنه لن يسير فيهم إلا بسيرة علي بن أبي طالب[٢].

ثم تعرض أبو عبد الله لمؤامرة خطيرة، وينسبها المقريزي إلى حقد قبائل البربر على بني سكتان الذين احتضنوا أبا عبد الله. واشترك في هذه المؤامرة، ولاة ميله وسطيف وبلزمة، وبعض رؤساء القبائل. واضطر أبو عبد الله إلى الاختفاء، واستعد بنو سكتان للقتال[٤].

تولى القيادة العسكرية الحسن بن هارون الغشمى، وهو من رجالات كتامة. وعرض على أبي عبد الله أن يصاحبه إلى مدينة تاصروت[٥]. وهناك «أتته القبائل من كل مكان، وعظم شأنه، وصارت الرئاسة للحسن بن هارون، وسلم إليه أبو عبد الله أعنة الخيل، وظهر له من الإستتار، وشهد الحروب، فكان الظفر له، وغنم الأموال، وخندق على مدينة تاصروت، وقد زحفت إليه قبائل المغرب، فاقتتلوا عدة مرار، كان له فيها الظفر، وصار إليه أموالهم، فاستقام له أمر البربر وعامة كتامة»[٦].

---

(١) يقصد عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز.

(٢) افتتاح الدعوة ص ٨٢.

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٨.

(٤) افتتاح الدعوة ص ٩٥ ــ ٩٩.

(٥) هكذا كتبها المقريزي، بينما كتبها النعمان (بتازروت).

(٦) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٨، انظر أيضا تفاصيل هذه الحروب في رسالة افتتاح الدعوة ص ٩٩ ــ ١١٧.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

أخفقت المؤامرة تماما، وحاز أبو عبد الله الشيعي نصرا حاسما، وفاز بكثير من الغنائم.[١] وفي تاصروت (أو بتازروت) بني أبو عبد الله قصرا لسكنه، وأقطع أنصاره دوراً حول القصر، وقدم آلاف من الشيعة يشيدون لهم بيوتاً، حتى تكامل شكل «دار الهجرة»[٢].

تدعم نفوذ أبي عبد الله، ونجح في تكوين «مجتمع شيعي» في «دار الهجرة». وقد ميز القاضي النعمان[٣] بين فئات هذا المجتمع، فقال: «منهم من أراد بذلك وجه الله عز وجل وطلب ثوابه، وأخلص فيه له وآثر به ما عنده ومنهم من أراد بذلك الدين والدنيا ودرك حظه من الآخرة والأولى ومنهم من دخل ذلك يبتغي به الفخر والشرف والذكر والرياسة ومنهم من أراد به الكسب والفائدة، ومنهم من دخله الحسد والمنافسة، ومنهم من صار إليه خوفا وتقية ومداراة».

نظم أبو عبد الله شئون هذا المجتمع الشيعي، فساده الأمن والأمان، ويصف القاضي النعمان[٤] أحوال هذا المجتمع الآمن، فيقول: «فلم ير الناس ولا انتهى إليهم أن قوما كانوا من صلاح الحال والإستقامة على مثل ما كان عليه أصحاب أبي عبد الله». فكان التجار يرحلون بقوافلهم في أمن وسلام وإذا سقط من أحدهم شيء، بقى في مكانه حتى يعود صاحبه ليأخذه.

---

(١) كانت الغنائم من الكثرة حتى باعوا العشرين بعيرا بدينار، وبيع الجمل بخمس بصلات (افتتاح الدعوة ص ١١٦)

(٢) افتتاح الدعوة ص ١١٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٢ ــ ١٢٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٢٥.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وأراد أبو عبد الله أن يكون أبناء المجتمع الشيعي في دار الهجرة يداً واحدة، وعمل على تهذيب أخلاقهم، حتى يكون مجتمع الخير والبر، وخفق للجميع المساواة والعدل والإخاء، حتى كان الواحد ينادي الآخر «يا أخانا»، وحثهم على أداء شعائر الإسلام، وعاقب المذنب عقابا صارما. وأطلق على أصحابه اسم «المؤمنين»، بينما سمى أعداءهم «الكافرين». وحلت الرابطة الاجتماعية الجديدة في المجتمع الشيعي محل الرابطة القبلية القديمة.

وأصبح أبو عبد الله قدوة طيبة لأبناء هذا المجتمع الجديد، فكان مثلا أعلى في الصلاح والتقوى والزهد والتقشف، واستمر على ارتدائه الخشن والمرقع من الثياب، وجعل القرآن الكريم دستوراً له في جميع تنظيماته السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وكان مثالا للتواضع والتسامح، فكان أبناء المجتمع ينادونه «يا أخانا» كما ينادون سائر الناس. وظل فترة طويلة بدون زواج. حتى إذا تزوج أخيراً اكتفى بهذه الزوجة دون الزواج بغيرها.

وصف القاضي النعمان[١] أحوال هذا المجتمع الشيعي، فقال: «وتحامى الناس المصائب وتركوا الاختلاف في المذاهب، وصاروا على أمر واحد يتسمون إخوانا».

واهتم أبو عبد الله بتنظيم مجتمعه الجديد في دار الهجرة. فقسم كتامة أسباعا، وجعل لكل سبع منها عسكراً، وقدم عليه مقدما، وخصص لكل موضع داعيا، وسمى المقدمين والدعاة (المشايخ) رغم أنهم لم يكونوا من المتقدمين في السن، وتولى هؤلاء المشايخ تدبير أمور أبناء المجتمع، وتوزيع ما يحوزوه من غنائم عليهم بالعدل والقسطاس[٢].

---

(١) افتتاح الدعوة ص ١٢٥ ــ ١٢٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٢٦.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

واهتم أبو عبد الله بالدعاة، فكان يهتم بإعدادهم ويمتحن اخلاصهم، ويعاهدهم على الموت، وتولى تعليمهم وتدربهم بنفسه، فكان يطيل الجلوس إليهم، يوصيهم ويذكرهم، ويعظهم وينصحهم، ويحثهم على التعاون والتواصل وحسن معاملة الناس، وأصبح أبو عبد الله قدوة لهم، إذ اشتهر بالزهد في عرض الدنيا ومباهج الحياة[١].

كما اهتم أبو عبد الله بنساء مجتمع (دار الهجرة)، فكانت النسوة يحضرن مجالس أبي عبد الله، ويسمعن الوعظ والإرشاد، كما كن يخدمن «المؤمنين» ويعالجن المرضى والجرحى[٢].

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٨ ــ ١٣١. ضرب النعمان (ص ١٣٢) مثلا لهؤلاء الدعاة بداع يسمى (كور بن قنبر) الذي انفق كل أمواله في مواساة اخوانه واطعامهم.

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٣٣ ــ ضرب النعمان مثلا لهؤلاء النسوة فتحدث عن امرأة يحيى بن يوسف التي أنفقت جميع أموالها في الجهاد، وكانت تصنع الطعام بيدها للمجاهدين حتى أن يديها كانت تدميان من الطحن والطهى.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٧ ـ الجهاد

كانت «دار الهجرة» هي النواة الأولى للدولة التي جاهد أبو عبد الله في سبيل إنشائها. وقد أراد أن تكون هذه الدار هي «المدينة الفاضلة» التي طمع في ظهورها الفلاسفة القدماء. ولذا اهتم أبو عبد الله بالتنظيم الاجتماعي، وبالتهذيب الأخلاقي، وجعل الدين أساسا للتنظيم والتهذيب. والدين دائما هو منبع القيم الإنسانية والمثل العليا الأخلاقية، ولا يمكن أن تقوم دولة كبرى إلا على أساس وطيد، وقد أراد أبو عبد الله بمجتمعه الشيعي الجديد أن يكون ذلك الأساس الذي يقيم الفاطميون عليه دولتهم التي أملوا في قيامها عبر العصور.

أصبح المجتمع الشيعي هو مجتمع الحرية والإخاء والمساواة، ومجتمع الوفاء والصفاء والنقاء. أمن مستتب، واستقرار اجتماعي، وعدل اقتصادي، في إطار من التدين والتصوف، أضفى على هذا المجتمع غلالة روحية سمت به ورفعت ذكره. وأصبح أبو عبد الله الزعيم الراشد، والأخ الأكبر.

وهذا المجتمع المثالي جعل البربر يقارنون بينه وبين النظم الرجعية القديمة البالية التي سادت وما زالت سائدة في دولة الأغالبة وصار البربر يتمنون زوال الحكم الأغلبي، ويرجون إتساع دائرة هذا المجتمع الشيعي حتى يشمل كل أرجاء أفريقية.

ولم يكن هذا المجتمع الجديد يهدد دولة الأغالبة فحسب. بل كان يهدد أيضاً النظام القبلي القديم السائد في إفريقية منذ قرون طويلة، إن الرابطة في القبيلة هي رابطة الدم، ولذا فإن قومية البربر هي قومية قبلية. أما المجتمع الشيعي الجديد فهو يعتبر «دار الهجرة» هي الوطن، ولذا فالرابطة بين أبناء

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

المجتمع هي رابطة وطنية، إذ تربطهم وحدة اجتماعية ووطنية، تؤدي إلى وحدة المصير، وإلى وحدة الآمال والآلام. فقد كانت «دار الهجرة» هي البوتقة التي انصهرت فيها كل العناصر التي اسكنتها، فزال ما كان بينها من خلافات. كما أصبح التشيع أيضاً رابطة فكرية تمثل وحدة الرأي والمبدأ والاتجاه.

ولذا كان لا بد أن تصطدم دار الهجرة، ويصطدم المجتمع الشيعي، بدولة الأغالبة، وبالقبائل التي تريد الاحتفاظ بنظمها القبلية القديمة. ولا بد من صدام الجديد الناهض المتطور، بالقديم الرجعي المتأخر، فهي سنة الحياة، في كل زمان ومكان.

وهذا ما حدث فعلا، وقد شهدنا في الفصل السابق بداية الصراع بين أبي عبد الله الشيعي وبين الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد. كما شهدنا أيضاً المؤامرة الخطيرة التي نسجت خيوطها قبائل البربر.

وفي هذا الفصل نرى استمرار الصراع بين دولة الأغالبة وأبي عبد الله الشيعي. ولكن البقاء دائما للأصلح.

حاول الأمير إبراهيم الأغلبي قتال أبي عبد الله الشيعي مرتين، فلحقت به الهزيمة. وفي سنة ٢٩١ هـ، توفرت الظروف لأبي عبد الله ليبدأ نشاطه العسكري، ومن أجل اتساع نطاق دعوته. وساعده على ذلك موت الأمير إبراهيم في نفس السنة (٢٩١ هـ)، ثم موت ابنه أبي العباس[١]، وتولية

---

(١) كان أبو العباس على مذهب أبي حنيفة، ويقول بخلق القرآن، وقد مات بعد أبيه بتسعة شهور (افتتاح الدعوة ص ١٤٦).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

(زيادة الله) الذي انصرف إلى حياة اللهو واللعب، «فاشتد سرور أبي عبد الله». وأصبح معظم وزراء زيادة الله شيعة «فلم يكن يسوءهم ظفر أبي عبد الله».[١]

بدأ جهاد أبي عبد الله، من أجل اتساع الدعوة، وامتداد «دار الهجرة» إلى أرجاء إفريقية، وأصبح من المحتم أن يغزو المجتمع الجديد الناهض المتحد أراضي المتجتمعات القبلية ومجتمع بني الأغلب التي تتصف بالتخلف والانحلال، بحكم الزمن ونتيجة فساد وتحلل النظم السياسية والاجتماعية ومارس أبو عبد الله نشاطا عسكريا واسع المدى، وخاض معارك حربية كثيرة، لا مجال في هذا البحث في ذكر تفاصيلها العسكرية، وقد فصل القاضي النعمان الحديث عنها في رسالة (افتتاح الدعوة). وقد بدأ أبو عبد الله جهاده بفتح مدينة (ميلة)، وكان كثير من أهلها من عرب ربيعة، وقد أعلنوا ولاءهم لأبي عبد الله.[٢]

وانتقل أبو عبد الله من نصر إلى نصر، وفتح كثيراً من المدن، وظل أبو عبد الله طوال هذه السنوات الماضية، على إخلاصه وولائه للإمام الإسماعيلي محمد الحبيب، يرسل إليه، بين حين وحين، رسله وهدياه.[٣] وخلال هذه الانتصارات الرائعة، مات الإمام محمد الحبيب، وخلفه ابنه الإمام عبيد الله المهدي.

واستمر جهاد أبي عبد الله، وتوالت انتصاراته، ورأى أنه قد أصبح

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٥٩. رحل زيادة الله من مدينة تونس إلى رفادة (افتتاح الدعوة ص ١٤٨).

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٢٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٠ ــ ١١.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

من القوة وسعة النفوذ مما يسمح له بدعوة الإمام الجديد عبيد الله المهدي للقدوم إلى بلاد المغرب. فبعث رجالاً من كتامة إلى الإمام «يخبرونه بما فتح الله عليه، وأنهم ينتظرونه، فوافوه بسلمية من أرض حمص».[١]

وخلال رحلة الإمام عبيد الله من سلميه إلى سجلماسة، وما حفلت به من مخاطرات ومغامرات، واصل أبو عبد الله الشيعي جهاده ونشاطه العسكري، وخاصة في مواجهة الأغالبة. فقد نجح أبو عبد الله في فتح مدينتي ميلة وسطيف وأدرك الأمير الأغلبي زيادة الله خطورة الموقف، فأعد جيشا حشد له أربعين ألف مقاتل، فكان أكبر جيش شهدته دولة الأغالبة وبذل زيادة الله أموالا كثيرة للقبائل. ونزل الجيش مدينة قسطنطينية وأصبح على بعد مرحلتين من إيكجان حيث يعيش أبو عبد الله الشيعي. وازداد عدد الجيش الأغلبي حتى بلغ المائة ألف مقاتل. ولكن أبا عبد الله نجح في إلحاق الهزيمة بهذا الجيش الكثيف[٢].

ثم فتح أبو عبد الله مدينتي طينه وبلزمة، وانتصر على جيش أغلبي في موقعة (دار ملول)، ثم فتح مدينة تيجس، وانتشر الذعر في سائر المدن، وحاول الأمير الأغلبي تهدئة نفوس رعاياه، فبعث برسائل إلى جميع المدن، يطمئن أهاليها، وأمر بقراءة هذه الرسائل من فوق المنابر[٣].

واستمر أبو عبد الله في زحفه، يحوز النصر على قوات الأمير الأغلبي، الذي بدأ كثير من جنده في الانفضاض من حوله. وأراد أبو عبد الله توجيه

---

(١) المقريزي: اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٦٠.

(٢) النعمان: افتتاح الدعوة ص ١٥٦ ــ ١٦٠.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٠.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ضربة قاضية إلى (رقاده) حيث يعيش الأمير. الأغلبي ونزل أبو عبد الله في (القصرين) بينما نزل الأمير في (دار هدين). واشتبك الفريقان في معركة حامية الوطيس، دارت فيها الدائرة على الأمير الأغلبي الذي انسحب إلى (الأربس)[١].

ومضى أبو عبد الله في انتصاراته، ففتح مدينتي قسطيلية وقفصة، ثم اتجه إلى (الأربس) لقتال الأمير الأغلبي، الذي أسرع بالفرار إلى رقادة، حيث جمع أمواله وذخائره ونفائسه ثم غادرها ناجيا بنفسه. وانتشرت الفوضى في رقادة، وانتشر بها اللصوص ينتهبون الدوروالقصور. وما لبث أن دخل أبو عبد الله رقادة (رجب ٢٩٦ هـ) يعد فرار الأمير، وقدم أهاليها وشيوخها على أبي عبد الله فهنأوه بالفتح، وتبرأوا من الأغالبة[٢].

استقر أبو عبد الله في رقادة، وبعث منادين إلى القيروان ليطوفوا بشوارعها ينادون بالأمان لأهلها. فعاد إليها من هرب منها، واستقرت أحوالها وساد فيها الأمن والهدوء. وأعلن رجال دولة الأغالبة ولاءهم لأبي عبد الله.

توطد نفوذ أبي عبد الله الشيعي في رقادة والقيروان. وبدأ في تنظيم حكومته، فأمر خطباء المساجد بالصلاة على محمد، وعلى آله، وعلى أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب، وعلى الحسن والحسين، وعلى فاطمة الزهراء، رضى الله عنهم جميعا. وأن يكون الأذان بحى على خير العمل.[٣] ولكن هؤلاء الخطباء لم يذكروا اسم الإمام المهدي في الخطبة، إذ لم يحن الأوان بعد.

---

(١) المصدر السابق ص ١٩١ ــ ١٩٤.

(٢) المصدر السابق ص ص ٢١٢ ــ ٢١٤

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ٤٧.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

كما ضرب أبو عبد الله سكة جديدة، ولم ينقش اسم الإمام المهدي على الوجهين، بل جعل عليهما العبارتين الآتيتين: «بلغت حجة الله»، «تفرق أعداء الله». ثم ضرب سكة أخرى، نقش عليها «عدة في سبيل الله». ووسم الخيل بعبارة «الملك لله». وكان نقش خاتمة هو «فتوكل على الله، إنك على الحق المبين»[١]. كما نقش الخاتم الذي يمهر به الأوراق الرسمية: «وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم»[٢].

أما الأمير زيادة الله الأغلبي، فقد هرب إلى طرابلس، ومنها رحل إلى مصر. وكان واليها حينئذ هو عيسى النوشرى، وقد خشى أن يتولى زيادة الله حكم مصر بدله، إذ سمع عن أطماعه في حكمها، فرفض السماح له بالإقامة في مصر حتى يأتي له الإذن من العاصمة العباسية بغداد. وبعد ثمانية أيام، غادر زيادة الله مصر قاصداً بغداد، ولكنه مات في بيت المقدس، وقيل أنه مات مسموما، وكان قد أنفق كل أمواله على شرب الخمر[٣].

---

(١) سورة النمل آية ٧٩.

(٢) سورة الأنعام آية ١١٥.

(٣) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٢٢٧ ــ ٢٣١.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٨ ــ مؤسس الدولة الفاطمية

بعث أبو عبد الله الشيعي إلى الإمام عبيد الله المهدي، يدعوه إلى القدوم إلى بلاد المغرب[١]. ويصف القاضي النعمان[٢] خروج الإمام قاصداً المغرب بأنه «هجرة دار قراره بالمشرق». فقد قال له أبوه الإمام محمد الحبيب: «إنك ستهاجر هجرة بعيدة وتلقى محنة شديدة».

وغادر الإمام عبيد الله المهدي (سلمية) بالشام، ومعه ابنه وولي عهده (القائم[٣])، وكان غلاما حدثاً، وصحب أيضاً بعض خاصته ومواليه، ومنهم جعفر الحاجب الذي صحبه في رحلته[٤]. وأخبر المهدي مرافقيه أنه يقصد بلاد اليمن[٥].

ويرى القاضي النعمان[٦] أن المهدي كان يريد الرحيل من مصر إلى اليمن ولكن أحد دعاته[٧] كان قد سبقه إلى اليمن، ثم خرج على طاعته، بل حاول إغراء ابن حوشب وتحريضه على العصيان، ولكنه تمسك بوفائه للإمام، فلم يجد ذلك الداعي من يستجيب له سوى على بن الفضل.

---

(١) المقريزي: اتعاظ. الحنفا جـ ١ س ٦٠، عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٥٢ وما بعدها.

(٢) افتتاح الدعوة ص ١٤٩.

(٣) وهو أبو القاسم نزار (اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٠).

(٤) وضع محمد بن محمد اليماني رسالة باسم (سيرة الحاجب جعفر)، نشرها الأستاذ إيفانوف في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٣٦ (القسم الثاني).

(٥) اليماني: سيرة جعفر ص ١١٠ (مجلة كلية الآداب)

(٦) افتتاح الدعوة ص ١٤٩.

(٧) وهو فيروز (سيرة الحاجب جعفر ص ١١٠).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ويرى صاحبى كتاب (عبيد الله المهدي)[١] أن اتجاه المهدي إلى بلاد المغرب كان بوحي من أبي عبد الله الشيعي، ويستدلان على ذلك بأنه كانت في رفقة المهدي جماعة من الكتاميين الذين بعثهم أبو عبد الله لمصاحبته إلى المغرب. ويفسر صاحبي الكتاب حرص أبي عبد الله على قدوم المهدي إليه بأنه كان في حاجة إلى وجود الإمام في المغرب، حيث كان قد فرغ من صراعه مع المغاربة، وبدأ صراعه مع الأغالبة، أي أنه بدأ حربه مع دولة منظمة لها جيشها الثابت الدائم، ولذا فقد أصبح في حاجة إلى مؤازرة معنوية.

وكان دعاة الاسماعيلية في بلاد اليمن إذ ذاك يعتقدون أن دولة المهدي ستظهر في بلادهم، كما حرص رؤساؤهم على أن يكون قيامها على أيديهم. وكذلك كانت الحال بالنسبة لدعاة الإسماعيلية في المغرب، فكانوا يرجون قدوم المهدي إليهم لإقامة دولته. ولكن المهدي لم يكن راغباً في إقامة هذه الدولة باليمن، بل أزمع الرحيل إلى بلاد المغرب منذ خرج من سلمية تلبية لدعوة أبي عبد الله الشيعي، وتحقيقاً لنبوءة أبيه بقيام دولتهم في المغرب[٢].

وعلم الخليفة العباسي بخروج الإمام عبيد الله المهدي من سلمية، فبعث إلى والي مصر، عيسى النوشرى[٣]، يأمره بالقبض عليه. ويذكر المقريزى[٤] أن المهدي أفلت من يد هذا الوالي بوسيلتين، الأولى حديث رقيق خاطب

---

(١) حسن إبراهيم وطه شرف: عبيد الله المهدي ص ١١٧.

(٢) جمال سرور: النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب ص ٦١ ــ ٦٢.

(٣) ذكر المقريزي (اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٠) أن والي مصر كان عيسى النوشرى، بينما يرى الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٥٣) أن هذا الوالي هو محمد بن سليمان معتمداً على كتاب الولاة والقضاة.

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٠. انظر أيضاً كتاب الكامل لابن الأثير جـ ٨ ص ١٣

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وجدانه وحذره فيه من غضب الله عليه، والثانية رشوته بقدر كبير من المال.

وخرج المهدي مع مرافقيه، في زي التجار، وتعرضوا لقطاع الطرق الذين انتهبوا أموالهم[١]. ونجح المهدي في الإفلات من أيدي ولاة طرابلس وقسنطينة، ثم وصل إلى سجلماسة حيث قبض عليه واليها اليسع بن مدرار إذ كشف زيادة الله الأغلبي عن سره للوالي[٢].

ويبدي المرحوم الدكتور حسن ابراهيم[٣] عجبه من وصول عبيد الله المهدي إلى سجلماسة، وهي واحة في أطراف صحراء المغرب الأقصى إذ كان يجب عليه أن يسير إلى إفريقية حيث ذاعت الدعوة الدعوة الفاطمية وكثر أشياعها وربما سلك المهدي طريق الصحراء الذي تخترق القوافل التي تسير بين واحات مصر وواحات المغرب الأقصى ليأمن الوقوع في أيدي الأغالبة.

وخلال تواجد الإمام المهدي في سجنه بسجلماسة، واصل أبو عبد الله انتصاراته العسكرية، كما مر بنا. وكان أبو العباس أخي عبد الله في رفقة الإمام المهدي ثم افترق عنه في طرابلس، بأمر من المهدي، ضمن من افترق عنه من مرافقيه، حتى لا تثور شبهات الناس حينما يرون هذا الحشد الكبير وقدم أبو العباس إلى القيروان.

خرج أبو عبد الله الشيعي للأفراج عن الإمام المهدي في رمضان سنة ٢٩٦ هـ، واستخلف أخاه وأحد رجاله، ويدعى (أبو زاكى)، على

---

(١) يذكر النعمان (ص ١٥١) أن اللصوص انتهبوا أيضا كتبا كانت فيها علم من علوم الأئمة وحزن الإمام المهدي على ضياعها.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٢: كان ابن مدرار سنيا يكره الشيعة.

(٣) الدولة الفاطمية ص ٥٤.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

افريقية، خلال غيابه عنها لقضاء مهمته الخطيرة، والتي ستستغرق أربعين يوماً. وقاد أبو عبد الله جيشاً كثيفاً «فاهتز المغرب لخروجه، وخافته زنانة، وزالت القبائل عن طريقه[١]» وكانت قد مضت ثلاثة شهور والمهدي في سجنه.

وكان أبو عبد الله الشيعي يستطيع الاستيلاء على سلجسامة والقضاء على حكم ابن مدرار في يسرٍ وسهولةٍ، ولكنه رأى انتهاج سياسة الملاينة والحكمة «خوفاً على عبيد الله»[٣]،، فقد يقدم الوالي على قتل الإمام في سجنه.

وصل أبو عبد الله إلى أطراف سجلماسة، ومن هناك بعث رسله إلى ابن مدرار «يذكر أنه إنما قدم لحاجة ولم يقدم لحرب، ووعده الجميل من نفسه والبر والالتزام، وأكد ذلك وبالغ فيه»[٣]. ولكن ابن مدرار قتل هؤلاء الرسل، وأصر على العداء. فاضطر أبو عبد الله الشيعي إلى اقتحام المدينة، وهرب ابن مدرار وأهله، وتم إطلاق سراح الإمام المهدي وابنه القائم في يوم الأحد لسبع خلون من ذى الحجة سنة ٢٩٦ هـ[٤].

وصف كل من القاضي النعمان وابن الأثير والمقريزي يوم إطلاق سراح الإمام المهدي وصفا معبرا، ورسموا صورة للاحتفال تدل دلالة واضحة على اخلاص ووفاء أبي عبد الله الشيعي للامام. فقال المقريزي[٥]: «وقد انتشر

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٥.

(٢) المصدر السابق.

(٣) النعمان: افتتاح الدعوة ص ١٣٨. تم القبض على ابن مدرار وأمر أبو عبد الله يضربه بالسياط والطواف به بسجلماسة، وصادر أمواله، ثم قتله بعد ذلك.

(٤) ابن الأثير: الكامل جـ ٨ ص ١٧.

(٥) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٥.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

في الناس سرور عظيم. كادت تذهب منه عقولهم». ويصف النعمان[١] هذا الاحتفال، فيقول أن سجلماسة شهدت موكبا عظيما، تقدمه الإمام، وولى عهده القائم، ومشى أبو عبيد الله بين يدي الإمام، وهو يقول للناس «هذا مولاي ومولاكم أيها المؤمنون[٢]». وحمد الله عز وجل وشكره وبكى من شدة الفرح. وقدمت القبائل على المهدي تعلن له ولاءها، ولذا ظلت إقامته في سجلماسة أربعين يوما. وكتب أبو عبد الله إلى أهالي إفريقية كتابا بخبرهم فيه بأنباء اطلاق سراح الإمام.

وتغيرت الصورة السياسية في بلاد المغرب، فقد كان من أبرز قدوم الإمام المهدي إليها، أن «زال ملك بني الأغلب من إفريقية، وملك بني مدرار من سلجماسة، وملك بني رستم من تاهرت»[٣].

وينفى أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم ما ثارت من إشاعات حول إطلاق سراح الإمام، فقد ذهب البعض إلى أن أبا عبد الله الشيعي قد علم بقتل الإمام، فجاء برجل يهودي أظهره للناس باسم المهدي. ثم يقول: وليت شعري أين كان أبو القاسم (القائم) الذي ولى الخلافة بعد أبيه؟ ولماذا لم يتولاها في ذلك الحين، وقد كان في سن يستطيع معها الاضطلاع بأعباء الحكم؟ فقد زحف نحو مصر لفتحها سنة ٣٠١ هـ أي بعد أربع سنوات[٤].

ونحن نرى أن هذه الإشاعات هي حلقة في سلسلة الشكوى التي أحاطت ينسب الخلفاء الفاطميين. فهناك من المؤرخين السنيين من يرى انتساب

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٣٩.

(٢) كان أبو عبد الله الشيعي يطلق على من اعتنقوا التشيع وأعلنوا ولاءهم للامام المهدي وانضم إلى المجتمع الشيعي اسم المؤمنين.

(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٦.

(٤) الدولة الفاطمية ص ٥٥.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

عبيد الله المهدي إلى الداعية ميمون القداح وهناك من المؤرخين الأكثر اعتدالا، فينسبون عبيد الله إلى موسى الكاظم، لا إلى إسماعيل بن جعفر. وقد ثار جدال وحوار، على مر العصور التاريخية، حول نسب الفاطميين، شارك فيه مؤرخون شيعيون وسنيون، وأدلى المستشرقون أيضا بدلوهم في هذا الموضوع، مثل دى ساسي ودوزي ودي غوية ووستنفلد ونيكلسون وغيرهم. ولا مجال هنا لذكر الآراء المختلفة المتضاربة في هذا الموضوع القديم الشائك الطويل، الذي لم يتفق المؤرخون فيه، حتى الآن، على رأى واحد[١]. والذي يهمنا نحن أن الدولة الفاطمية قد أصبحت حقيقية واضحة، وأن أبا عبد الله الشيعي هو مؤسس هذه الدولة الفاطمية، بعد جهود كثيرة وكفاح طويل. وأبو عبد الله هو داعية الإمام عبيد الله، وهو يشارك ملايين الشيعة حينئذ إيمانهم بصحة نسب المهدي إلى الإمام إسماعيل بن جعفر الصادق. وقد كان استتار الأئمة من عوامل إثارة مثل هذه الشكوك التي أثارها أعداء الشيعة في ذلك الوقت، ورددها بعض المؤرخين المحدثين. وقد وضع أبو عبد الله الشيعي إيمانه بصحة نسب المهدي موضع التنفيذ فكانت جهوده التي شهدناها من أجل قيام دولته الفاطمية.

ومهما كان الرأي، فقد بدأ عهد جديد، وقامت الدولة الفاطمية في إفريقية، وبدأ ذكر اسم الإمام المهدي في خطبة الجمعة كأمير للمؤمنين. وولى الإمام الكتاميين أعمال إفريقية «ودون الدواوين، وجبا الأموال، واستقرت قدمه، ودانت له أهل البلاد، واستعمل العمال عليها»[٢].

---

(١) يقول الدكتور حسن إبراهيم (الدولة الفاطمية ص ٥٧) أن بحث المحدثين من المؤرخين لهذا الموضوع لم يسفر عن نتيجة حاسمة. ويقول الدكتور جمال الشيال (مقدمة كتاب اتعاظ الحنفا ج ١ ص ٣٩): مشكلة النسب مشكلة قديمة حديثة شغلت كل من تعرضوا لتاريخ الفاطميين من عرب ومستعربين.

(٢) افتتاح الدعوة ص ٢٣٢.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

٩ ــ مصرع أبي عبد الله

ثم كانت بداية النهاية، وبدت بوادر خاتمة صحيفة حياة ذلك المجاهد الكبير، الذي كرس حياته وجهوده وعبقريته لخدمة الدعوة الإسماعيلية وتأسيس الدولة الفاطمية، التي كانت في مقدمة الدول الإسلامية.

وشاءت الأقدار أن تكون نهاية حياة أبي عبد الله الشيعي، على يد الإمام عبيد الله المهدي، لقد منح أبو عبد الله الحياة للدولة الفاطمية، ولكنه فقد حياته على يد أول خلفائها. فعجبا لمفارقات القدر!!!

ويجمع المؤرخون الأقدمون على أن أبا العباس، أخا أبي عبد الله الشيعي، كان العامل الرئيسي في توتر العلاقات بين الإمام المهدي ورجله الأول أبي عبد الله، وتطورت الأحداث سريعاً، فانقلبت المودة إلى عداء وتحولت الثقة إلى ريبة، وانتهى الأمر بقرار للإمام بوضع حد لحياة أبي عبد الله الشيعي.

كان أبو العباس هو الأخ الأكبر لأبي عبد الله الشيعي. وقد قارن القاضي النعمان[١] بين الأخوين، فقال أن أبا العباس «كان أنفذ وأحد ذهناً وأكثر تفننا في العلوم وأسبق منه سابقة، وأبو عبد الله أرجح وزنا وأورع من أبي العباس. وكان أبو عبد الله يعظمه، وإذا دخل عليه أي أبو العباس ــ قام إليه على قدميه وظل قائما حتى يأذن له في الجلوس، وإذا دخل هو ــ أي أبو عبد الله ــ عليه قبل يده، ووقف حتى يأمره فيجلس».

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٣٢.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وهكذا كان أبو عبد الله يبالغ في تعظيم أخيه أبي العباس وفي اجلاله، نتيجة تقدمه عليه في السن. وهذا الاحترام الفائق هو الذي جعل أبا عبد الله بعد ذلك لا يضع حدا حين تخطى أخوه أبو العباس حدوده المرسومة، وحين تمادى في اتجاهات لا تتفق مع صالح الدعوة والدولة. وخاصة أن الأوضاع السياسية قد اختلفت وتغيرت فقد مضت سنوات طويلة كان فيها أبو عبد الله الشيعي هو الرجل الأول في المغرب، فكان أبو العباس يستطيع أن يستمد سلطانه الواسعة من نفوذ أخيه، واحترام الشعب الشيعي له، معتمدا على ثقة أخيه فيه واحترامه له. أما الآن، فقد قامت دولة فاطمية، وحكومة مسئولة تولى أمورها خليفة هو إمام المؤمنين وأميرهم، وهو حريص على أن يمارس سلطانه المشروعة فكان لا بد من الصدام بين أصحاب السلطة في عهدين متتالين، العهد السابق لقدوم الإمام المهدي، وعهد قيام الحكومة الفاطمية برئاسة الخليفة المهدي.

وكان أبو العباس قد وصل إلى درجة كبيرة من السلطة والنفوذ قبل قدوم المهدي. فكان أهل كتامة يلمسون تعظيم أبي عبد الله لأخيه أبي العباس، ولذا لا غرو أن «عظم في أعينهم» أيضا[١].

كما استخلف أبو عبد الله أخاه أبا العباس ورجله أبا زاكى حين رحل على رأس الجيش لإطلاق سراح الإمام المهدي من سجن سجلماسة وقد غاب أبو عبد الله أربعين يوماً، مارس فيها أخوه أبو العباس جميع السلطات، وتوطد خلالها نفوذه[٢].

---

(١) افتتاح الدعوة ص ٢٢٢.

(٢) المقريزي: اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٦٦.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ونحن لا نشك مطلقاً في إخلاص أبي عبد الله للإمام المهدي ونؤكد وفاءه وإخلاصه ومودته وتقديره للامام.. لقد كان أبو عبد الله طوال حياته يتصف بالوفاء والصفاء والنقاء، وعلى خلق كريم، وتواضع شديد.. وقد بدت هذه الصفات كلها في معاملته لسائر الناس، عظيمهم وحقيرهم، غنيهم وفقيرهم[١] وتجلى إخلاص ووفاء أبي عبد الله الشيعي للإمام في كل الجهود التي بذلها من أجل التمهيد للإمام للقدوم إلى بلاد المغرب وتولى الخلافة فيها. لقد نجح أبو عبد الله، بجهود فردية، احتواء أهالي إفريقية في مجتمعه الشيعي.. وهو الذي بعث يستدعي الإمام من سلميه بالشام. وهو الذي خرج على رأس جيشه لإطلاق سراح الإمام من سجنه في سلجماسة. وقد رأينا مدى قلق أبي عبد الله على الإمام وهو في سجنه، وخوفه من أن يقدم الوالي ابن مدرار على قتله. كما شهدنا فرحة أبي عبد الله لنجاته واستعادته حريته، ورأينا أبا عبد الله في موكب الإمام في شوارع سجلماسة، ماشيا بين يديه، يبشر الأهالي بالإمام.

ولذا فنحن نوافق المؤرخين الأقدمين الذين يجعلون غرور أبي العباس هو السبب الوحيد الذي أدى إلى الوقيعة بين الخليفة المهدي وأبي عبد الله. وغذى الحاسدون والحاقدون هذه الوقيعة، فتضخمت وتطورت، وانتهت بأمر من الخليفة المهدي بقتل أبي عبد الله.

وضح المقريزي[٢] حقيقة مقتل أبي عبد الله الشيعي، فقال: «وكان سبب قتله، أن المهدي لما استقامت له البلاد باشر الأمور بنفسه، وكف يد أبي عبد الله ويد أخيه أبي العباس، فداخل أبا العباس الحسد، وعظم عليه

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ١٢٦.

(٢) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٧.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

للفطام من الأمر والنهى، والأخذ والعطاء، فأقبل يزري على المهدي في مجلس أخيه، ويتكلم فيه، وأخوه ينهاه، ولا يزيده إلا لجاجا».

وهذا النص الذي نقلناه عن المقريزي، واضح وصريح ونحن نعتقد أن الإمام المهدي كان على حق في ممارسة الأمور بنفسه، فهو حقه الطبيعي كخليفة وأمير للمؤمنين والدولة الفاطمية لا زالت في المهد وفى حاجة إلى رعاية وعناية، كما كانت تواجه كثيرا من الأعداء والخصوم. وإذا كان الخليفة الجديد قد كف يد أبي عبد الله عن بعض المهام، فإننا نعتقد أن ذلك موجهاً بالأكثر إلى أبي العباس، وقد كان أبو العباس يستمد سلطاته من أخيه. كلما أننا نلاحظ أن أبا العباس كان قد وصل إلى مرحلة الغرور والاستعلاء التي يخشى الخليفة امتدادها واتساعها وكان الخليفة يعلم إجلال أبي عبد الله لأخيه، وتعظيم الناس لأبي العباس. وكان أبو العباس ــ في الحقيقة ــ قد أصبح قبل قدوم المهدي، الرجل الأول في بلاد المغرب. وأدرك أبو العباس أن تولى الإمام المهدي الخلافة أصبح يهدد سلطانه القديمة التي مارسها سنوات طويلة بتفويض من أخيه عبد الله.

ونحن أيضاً لا نشك في أن كلا من الإمام المهدي وأبي عبد الله الشيعي كان يبادل الآخر المودة والاحترام. ولكن غرور وحقد أبي العباس أفسدا ما بين الرجلين. وقد عمل أبو العباس جاهدا في إيغار صدر أخيه أبي عبد الله على الخليفة الإمام، فكان يقول له: «ملكت أمرا وانطاع لك، فجئت بمن أزالك عنه وأخرجك منه وتنقصك واضطهدك، وكان أقل الواجب لك أن يدعك وما كنت عليه فتكون الآمر والناهي، ويشتغل إن شاء بشغل نفسه دون أن يهتضمك أو يقيمك من الذل في مثل هذا المقام[1]».

---

(١) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وفي الحقيقة، أبدى أبو عبد الله استنكاره لمقال أخيه، ولامه عليه، ولكن أبا العباس مضى في سياسة الوقيعة بين الرجلين، فقال للخليفة الإمام: «لو كنت تجلس في قصرك وتتركني مع كتامة آمرهم وأنهاهم، لأني أعرف بعادتهم، لكان ذلك أهيب لك في أعين الناس». وهكذا لم يشأ أبو العباس أن يكون شريكا للخليفة في سلطته، بل أراد أن يكون بديلا له. وأبدى الخليفة حلما وتسامحا، فقد رد على أبي العباس ردا لطيفا، ولكنه «أسر ذلك في نفسه»[١].

وتمادى أبو العباس، فعمد إلى إثارة مشاعر رجالات الدولة ضد الخليفة، فقد توجه بالحديث إلى الدعاة والمشايخ فقال: «ما جازكم على ما فعلتم، بل أخذ هو الأموال من إيلجان ولم يقسمها فيكم»[٢]. وعلم الخليفة بهذا التحريض، فآثر سياسة الحكمة والتسامح مرة أخرى، فتغافل عنه.

وانطلق أبو العباس في الإساءة إلى الخليفة الإمام شخصياً، فالتقى ثانية بالدعاة والمشايخ «فطعن لهم في الإمامة وأدخل فيها الشبهة»[٣]. ثم قال: «إن هذا ليس بالذي كنا نعتقد طاعته وندعو إليه، لأن المهدي يأتي بالآيات الباهرة».

وفي الحقيقة، كان أبو العباس يهدم البناء الشاهق الذي شيده أخوه أبو عبد الله طوال سنوات عديدة، ونجح أبو العباس في إثارة الشكوك والريبة، فقد أثرت أقواله «في قلوب كثير من الناس، حتى إن بعضهم من

---

(١) المقريزي: اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٦٧.

(٢) المصدر السابق.

(٣) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٢٦١.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

كتامة واجه المهدي بذلك وقال: إن كنت المهدي فأظهر لنا آية، فقد شككنا فيك»[١].

نفذ صبر الخليفة، وكان بالأمس يتغاضى ويتغافل. ولكن أبا العباس الآن قد شن ثورة علنية ضد الخليفة، وهدم أساس نظام الإمامة الذي قامت عليه الخلافة الفاطمية. ولذا رأى الإمام المهدي أن يضع حدا لهذا العداء السافر، وقد بدت بوادر ثورة شعبية، وأصبح الأمر مسألة مصيرية، ترتبط بمصير الإمام، وفلسفة الإمامة، ومستقبل الدولة الفاطمية.

ولذا قرر الخليفة الخلاص من أبي العباس، ومن أبى عبد الله أيضاً. وقد كان من العسير الإبقاء على حياه أبي عبد الله، فهو لن يسكت على قتل أخيه، فهناك صلات الدم، ورابطة الأخوة، فضلا عن تعظيم أبي عبد الله لأخيه.

وعلم أبو عبد الله بعزم الخليفة، وبدأ سباق بين الرجلين، وأصبح كل منهما يعمل على سبق الآخر في الفتك به. وعقد أبو عبد الله اجتماعا في دار أبي زاكى تمام بن معارك، وكان من كبار أعوانه، «فعقدوا العقود، وأجمعوا الآراء، واحتالوا على أن يفتكوا بالمهدي»[٢]. وبدأ تنفيذ المؤامرة، وأراد بعض الكتاميين قتل الخليفة عدة مرات «فلم يجسروا على قتله». ورأى المهدي تشتيت شمل أنصار أبي عبد الله، فولى زعيمهم أبا زاكى حكم طرابلس، وأمر عاملها سرا بقتل أبي زاكى عند وصوله[٣].

ثم رأى المهدي أن يعجل بقتل الأخوين، فتم قتل أبي العباس، ثم بعث بجماعة إلى قصر أبي عبد الله لاغتياله. وحاول أبو عبد الله نهيهم عما قدموا لأجله

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٧.

(٢) النعمان: افتتاح الدعوة ص ٢٦٣.

(٣) المقريزي: اتعاظ. الحنفا جـ ١ ص ٦٨.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

فقال لهم: لا تفعلوا. فقالوا له: «إن الذي أمرتنا بطاعته أمرنا بقتلك». ولقى أبو عبد الله، وأبو العباس، وأبو زاكي حتفهم في يوم الاثنين في منتصف جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ. وكان مصرع الأخوين في مدينة رقاده. وصلى المهدي على جثمان أبي عبد الله، وقال: «رحمك الله أبا عبد الله وجزاك خيرا بجميل سعيك»[١].

وترتب على مصرع أبي عبد الله اضطراب أحوال الدولة الفاطمية، فقد ثارت فتنة، وكاد يحدث صدام عسكري، فخرج المهدي بنفسه إلى هؤلاء الثوار «وأمن الناس فسكتوا، ثم تتبعهم حتى قتلهم».[٢]

وثارت فتنة ثانية بين كتامة وأهل القيروان، قتل فيها خلق كثير «فخرج المهدي، وسكن الفتنة، وكف الدعاة من طلب التشيع من العامة»[٣] ويطلق القاضي النعمان[٤] على هذه الفتنة، تعبير «فتنة النفاق».

قبض المهدي على رؤوس الفتنة فقتلهم صبرا على باب رقادة، ونصب رؤوسهم على الباب. وتتبع المهدي أنصار أبي عبد الله في كل البلاد بالقتل أو السجن. وظل هؤلاء المسجونين في حبسهم حتى أطلق سراحهم الخليفة المنصور، ثالث الخلفاء الفاطميين، فوصلهم وسيرهم إلى مصر. وقدم شيوخ القيروان على المهدي، يعتذرون له فأعرض عنهم، وقتل بعضهم ممن ثبت إدانته.

---

(١) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٧ ــ ٦٨.
(٢) المصدر السابق جـ ١ ص ٦٨، ابن عذارى: البيان المغرب جـ ١ ص ١٦٦.
(٣) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨.
(٤) افتتاح الدعوة ص ٢٧٠.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

وأراد المهدي تدعيم الدولة، فعهد بولاية العهد لابنه أبي القاسم (القائم) وسماه «ولى عهد المسلمين». ولكن مصرع أبي عبد الله لم يكن سحابة صيف مرت بسماء المغرب فقد رجع الكتاميون إلى بلادهم، حيث أقاموا طفلا وذهبوا إلى أنه «المهدي» وأنه يوحى إليه، كما زعموا أن أبا عبد الله لم يمت فبعث المهدي إليهم ابنه أبا القاسم، فقاتلهم وهزمهم، وقتل ذلك الطفل وكثيراً من أتباعه[١]. وانتشرت الاضطرابات في الدولة، فثار أهالي طرابلس وصقلية، ولكن المهدي نجح في القضاء على الفتن.

وطويت صفحة أبي عبد الله الشيعي، ولكن البذر الذي وضعه قد أينع وأثمر، وظل الغرس الفاطمي قائماً في بلاد المغرب، وبدأت الدولة الفاطمية تكتب صفحات كثيرة مجيدة من صفحات التاريخ.

---

(١) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨. ويذكر النعمان (افتتاح الدعوة ص ٢٧٣) أن هؤلاء الكتاميين أباحوا الزنا والمحارم.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

١٠ ــ بين أبي عبد الله الشيعي وأبي مسلم الخرساني
(دراسة مقارنة)

نظرية (عودة التاريخ) من النظريات التاريخية التي تحلو لبعض المؤرخين المحدثين إبرازها، والبحث عن أمثلة تطبيقية عملية لها، حتى أن التاريخ حقا يعيد نفسه.

ومن هؤلاء المؤرخين المحدثين أستاذنا المرحوم الدكتور حسن إبراهيم حسن[١] الذي قال: والتاريخ يعيد نفسه كما يقولون، فقد كانت خاتمة أبي عبد الله الشيعي هي خاتمة أبي مسلم الخراساني، مع ما عرف من غيرته وانتصاره للدعوة العباسية.

ونحن نرى أن الظاهر وإن كان واحداً، إلا أن الجوهر لمختلف تماما. فأبو عبد الله وأبو مسلم يتفقان في أن كلا منهما ساهم مساهمة رئيسية إيجابية في إنشاء دولة عظمى وخلافة كبرى. ويتفق الرجلان أيضاً في المصير وفي خاتمة حياتهما، فقد لقي كل منهما حتفه على يد خليفة من تلك الدولة التي قامت على كتفيه فلقى أبو مسلم حتفه على يد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور في سنة ١٣٧ هـ[٢]، وكانت نهاية حياة أبي عبد الله على يد الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله المهدي في جمادى الآخرة سنة ٢٩٨ هـ[٣].

---

(١) الدولة الفاطمية ص ٥٦, تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٩٢.

(٢) الطبري جـ ٦ س ١٢٧ وما بعدها.

(٣) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ولكن الرجلين يختلفان تماماً في ظروف ظهورهما على مسرح الأحداث، ويختلفان في الأصل والنشأة وفجر الحياة، وفي إعدادهما للقيام بالمهمتين العظيمتين اللتين قاما بها كما يختلفان في النزعة، وفي الاتجاه السياسي، وفي إخلاقهما وصفاتهما الشخصية.

لقد كانت شخصية أبي مسلم على نقيض تام من شخصية أبي عبد الله التي شهدنا معالمها في هذا البحث. فقد أصبح أبو مسلم رأس الشعوبية الموجهة ضد العرب، ورأس الزندقة الموجهة ضد الإسلام. وقد كانت كل جهوده ظاهريا لإقامة الدولة العباسية، ولكنه كان في قرار نفسه يهدف إلى بعث الدولة الفارسية القديمة في ثوب إسلامي جديد، بحيث يصبح الموالى الفرس في هذه الدولة هم اصحاب السلطة الحقيقية. وقد اعتمد أبو مسلم في خطواته على الموالي الذين كان كثير منهم أعداء ألداء للاسلام[١]. كما أبدى أبو مسلم روحا شعوبية واضحة، وقتل آلافا من العرب في خراسان[٢]. وامتزجت الدعوة العباسية بتيارات الشعوبية وبالتعاليم المجوسية الإلحادية، وبتعاليم الفرق المتطرفة[٣].

واعتمد أبو مسلم في جهوده من أجل الدولة العباسية على مهارته العسكرية وحدها، فهو رجل حرب وقتال، وليس رجل سياسة ودهاء. وهو يعتمد في نجاحه العسكري على الإرهاب وسفك الدماء، ليثير رعب أعدائه فيتساقطون على أقدامه، وتركزت جهود أبي مسلم في حشد قوات عسكرية ضخمة، تألف جندها من الساخطين على الحكم الأموي، نتيجة دوافع قومية أو سياسة

---

(١) فان فلوتن: السيادة العربية ص ٢٨.

(٢) روى الطبري (جـ ٦ ص ١٣٧) أن أبا مسلم «قتل في دولته وحروبه ستمائة ألف صبرا».

(٣) فلهوزن: الدولة العربية ص ٤٤٧.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

دينية. فقد انضم إليه الموالى الفرس الذين سخطوا على الأمويين سياسة اضطهادهم للعناصر الأجنبية، وبعض المجوس المنافقين المتظاهرين بالإسلام ويريدون الكيد له، إلى جانب بعض الموالين لفرق سياسية ومذهبية تعارض الدولة الأموية، وعناصر أخرى طامعة وحاقدة. فأصبح جيش أبي مسلم خليطا عجيبا لا يجمعه سوى الرغبة في إسقاط الدولة الأموية. ونجح أبو مسلم بهذا الجيش في هزيمة مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين في موقعة الزاب، ثم تتبعه إلى مصر حيث قتله، ثم قامت الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ[١].

أما أبو عبد الله الشيعي فهو رجل دعوة، وسياسة، ودهاء. وكان العرب الأقدمون يستخدمون لفظ (داهيه)[٢] مراد فاللفظ (عبقري)، ووصفه ابن الأثير[٣] بأنه «على علم وفهم ودهاء ومكر»، وقال عنه كل من المقريزي[٤] وابن خلكان[٥] أنه كان «من الرجال الدهاة الخبيرين بما يصنعون». وبدأ أبو عبد الله حياته ــ كما رأينا ــ محتسباً، وكان لا يتولى هذا المنصب إلا من هم على دين وخلق وكفاءة. واشتهر أبو عبد الله في فجر حياته بالتدين والزهد حتى سموه «الصوفي». وأبو عبد الله ــ قبل كل شيء هو داعية علوي، وليس قائداً عسكرياً، رغم انتصاراته العسكرية العديدة وأقام أبو عبد الله صرح الدولة الفاطمية على أساس عبقريته وذكائه ولباقته وعلمه. واختار طريق الدعوة والإرشاد، وسلك الطريق السلمي غالباً. ولا نجد في أخبار

---

(١) الطبري جـ ٥ ص ١٥٢ وما بعدها.

(٢) قال العرب قديما دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، وزياد بن أبيه، والمغيرة بن شعبة.

(٣) الكامل جـ ٨ ص ٣١.

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨.

(٥) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

حروبه أثراً لبطش أو إسراف في سفك الدماء ولا نجد أيضاً في أخبار مجتمعه الشيعي أي عصبية عنصرية، فقد ساوى بين البربر والعرب في الحقوق والواجبات وعمل على إذابة كل الفوارق في بوتقة «دار الهجرة» فالجميع سواء ما دام يجمعهم ولاء للامام العلوي. والعرب والبربر جميعاً في مجتمعه هم «المؤمنون». أما «الكافرين» فهم أعداء الإمام، سواء أكانوا عرباً أم بربرا.

أقام أبو سلم الخرساني كل أمجاده على انتصاره العسكري في موقعه الزاب. بينما كان أبو عبد الله، هو الداعية الحاذق، والمصلح الاجتماعي، والزعيم الشعبي ورجل السياسة والإدارة، والمثل الأعلى لمجتمعه في الدين والأخلاق[١].

وكانت مهام أبي عبد الله أكثر صعوبة ووعورة من مهام أبي مسلم. فالدولة الأموية كانت في أواخر أيامها، تحتضر وتلفظ أنفاسها، إذ توالت عليها معاول الهدم[٢]، كثورات الشيعة والخوارج والموالى، فضلا عن انقسام الأمويين على أنفسهم وتنافسهم على طلب الخلافة. ولذا عجل أبو مسلم بنهايتها، بعد أن أصابها التصدع والإنحلال، وأوشكت على السقوط والانهيار[١]. وكان أبو مسلم رجلا من رجال كثيرين اعتمد عليهم العباسيون في دعوتهم، فكانت هناك تنظيمات كبيرة دقيقة لهذه الدعوة، أقامها

---

(١) رغم انتقاد القاضي النعمان لموقف أبي عبد الله من المهدي، فهو يشيد دائما بأبي عبد الله، فقد ظل دائما محتفظا بما كان عليه «من لباس الدون من الثياب الخشن»، ونشر الأمن في المغرب حتى «سكنت الدهماء وأمنت السبيل» ودعا إلى الأخلاق الفاضلة «فأمر بقطع شرب المسكر وكل ما ظهر من المنكر) »، (ص ٢١٥).

(٢) انظر عوامل سقوط الدولة الأموية في كتابنا (الاسلام والخلافة) طبعة بيروت سنة ١٩٧.

(٣) في نص للمؤرخ ابن طباطبا (الفخرى ص ٢٩) يتضح أن الظروف كلها كانت مهيأة لقيام الدولة العباسية، فذكر منه: «لما قدر الله عز وجل انتقال الملك إلى بني العباس هيأ لهم جميع الأسباب... ولما قدر الله تعالى خذلان مروان وانقراض ملك بني أمية، فكان مروان خليفة مبايعا، ومعه الجنود والأموال والسلاح والدنيا بأجمعها عنده، وأمره يضعف، وحبله يضطرب، فما زال يضمحل حتى هزم وقتل، فتعالى الله».

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

العباسيون طوال ٣٢ سنة، في معظم الأمصار الإسلامية. وإذا كان نشاط أبي مسلم قد تركز في خراسان، فقد مهد الأمور له فيها دعاة عباسيون عديدون من قبل، فقد تولى أمر الدعوة العباسية في خراسان أبو عكرمه السراج، وكان له سبعون داعية من بينهم إثنا عشر نقيباً. وكانت خراسان مهيأة تماماً للدعوة العباسية، ولذا اختارها العباسيون مهد حركتهم المعارضة للأمويين. ولذا فإن أبا مسلم قد جنى ثمار جهود الكثيرين ممن سبقوه إلى خراسان.

هذا، بينما أقام أبو عبد الله بناء الدولة الفاطمية بجهوده الفردية، بغير مال أو رجال. قد قدم أبو عبد الله إلى المغرب وحيداً فريداً، لا عون له سوى هؤلاء النفر من حجاج كتامة الذين نجح بذكائه وكياسته أن يبهرهم ويستميلهم، دون أن يخبرهم بحقيقة أمره ودعوته. وزحف أبو عبد الله في خطوات وئيدة بطيئة، في طريقه الوعر، وكأنه ينحت في صخر، حتى بذر بذوره. أما ما قام به الحارثان، الداعيتان أبو سفيان والحلواني، فقد عفا الزمان، بعد نحو قرن ونصف قرن، على جهودهما. فقد كان على أبي عبد الله ــ في الحقيقة ــ أن يبدأ من جديد، ومن أول الطريق.

لقد أعلن أبو مسلم الخراساني العصيان على الخليفة أبي جعفر المنصور، علنا وصراحة، وأراد أن يكون الحاكم الفعلي للجناح الشرقي من الدولة العباسية، وتعمد دائماً الاستهانة بالخليفة والتصغير من شأنه[١] أما أبو عبد الله فقد ظل دائماً على إخلاصه وولائه ووفائه للإمام عبيد الله المهدي. ولولا غرور

---

(١) انظر تفاصيل العداء بين أبي مسلم والمنصور في تاريخ اليعقوبي جـ ٢ ص ٣٩، تاريخ الطبري جـ ٦ ص ١٢٧ وما بعدها، ومروج الذهب للمسعودي جـ ٣ ص ٣٠٢ وما بعدها.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

أخيه أبي العباس وسياسته الخرقاء، لاستمر التقدير والحب متبادلين بين الإمام وعضو دولته أبي عبد الله. ولكن الأقدار هي التي كانت توجه أحداث التاريخ.

صبر الإمام عبيد الله المهدي، وتغافل عن عصيان أبي العباس، فهو يقدر جهود أخيه أبي عبد الله حق قدرها. ولكن أبا جعفر المنصور كان يبغض أبا مسلم، ويكن له كراهية شخصية دائماً، تدفعه إلى الرغبة في الخلاص منه. فحين كان المنصور ولياً للعهد، استمر على تحريضه لأخيه الخليفة العباسي الأول أبي العباس على قتل أبي مسلم[١]. ولكن هذا الخليفة كان يدرك خطورة الإقدام على اغتياله فكان يرفض دائماً. ولما تولى المنصور الخلافة نفث عن أحقاده، فكان قتل أبي مسلم في قصره، وفي مجلسه، وبيده[٢] ولكن المهدي لم يأمر بقتل أبي عبد الله إلا مضطرا، وبعد أن نفذ صبره وخاف على الدولة من الاضطراب والفتنة، وكان مصرع أبي عبد الله في قصره. وأبدى المهدي تسامحا حين خرج ليصلي على جثمان أبي عبد الله.

وكان لمصرع الرجلين العظيمين، آثاره الخطيرة في الدولة. فقد ثار أتباع أبي مسلم غضباً وسخطاً على مقتله، وظهرت حركة ثورية مجوسية تزعمها (سنباذ) المجوسي، تطالب بالثأر سنة ١٣٧ هـ وهب مائة ألف من أنصار أبي مسلم يتظاهرون بالسخط لمصرعه، وهم في الحقيقة يريدون الكيد للإسلام والعروبة، حتى أنهم نادوا بانهاء سلطان العرب. وأعلنوا عن عزمهم على

---

(١) كان المنصور يقول لأخيه أبي العباس: «أطعني واقتل أبا مسلم فوالله إن في رأسه لغدرة». (تاريخ الطبري جـ ٦ ص ١٢٤).

(٢) ضرب المنصور أبا مسلم بعمود، ثم أجهز رجاله عليه.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

الزحف إلى بلاد الحجاز لهدم الكعبة. ونجح المنصور، بعد جهود كثيرة في القضاء على هذه الحركة الخطيرة، التي تثبت ما قلناه من أن أبا مسلم كان رمز الشعوبية والزندقة[١] وما لبثت أن قامت حركة أخرى شعوبية مجوسية تزعمها اسحق التركي، أحد رجال أبي مسلم، فزعم أن أبا مسلم حتى لم يمت، وأنه سيعود لينشر العدل والأمن، ولذا أصبح في نظرهم (المهدي المنتظر) وحول بعضهم الإمامة إلى ابنته فاطمة.

وهذه الاضطرابات، وما صاحبها من أفكار إلحادية خرافية، تشبه ما ساد بلاد كتامة بعد مصرع أبي عبد الله، فقد أقام الكتاميون ــ كما رأينا طفلا زعموا أنه (المهدي) وأنه يوحى إليه، كما زعموا أن أبا عبد الله حى ولم يمت[٢] وظهرت بين الكتاميين أفكار هدامة فقد أباحوا الزنا والمحارم[٣]، وبذلك هدموا «المدينة الفاضلة» التي أقامها أبو عبد الله في «دار الهجرة».

ما أشبه الليلة بالبارحة. ولكن... هل يعيد التاريخ نفسه حقيقة؟!!... وسأترك الإجابة للتاريخ.

***

وأخيراً، لا نجد عبارة تختتم بها بحثنا هذا، أفضل من تلك العبارة التي قالها الخليفة عبيد الله المهدي حين كان يصلي على جثمان أبي عبد الله الشيعي، وهي:

«رحمك الله أبا عبد الله، وجزاك خيراً بجميل سعيك».

---

(١) الطبري جـ ٦ ص ١٤٠ وما بعدها.

(٢) المقريزي: اتعاظ الحنفا جـ ١ ص ٦٨.

(٣) فان فلوتن: السيادة العربية س ٩٢.

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

مصادر البحث
وقد ورد ذكرها جميعا في حواشى البحث

ابن الأثير: (٦٣٠ هـ)

ــ الكامل في التاريخ (بولاق، القاهرة ١٣٧٤ هـ)

الأصفهاني: (٣٥٦ هـ)

ــ مقاتل الطالبيين (طبعة القاهرة)

البغدادي: (+ ٤٢٩ هـ)

ــ الفرق بين الفرق (القاهرة ١٣٦٧ هـ ــ ١٩٤٨ م)

جولدتسيهر: (اجناس)

ــ العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة علي حسن عبد القادر وآخرين (القاهرة ١٩٤٦).

ابن حزم: (+ ٤٥٦ هـ)

ــ الفصل في الملل والأهواء والنحل (القاهرة ١٣١٧ هـ).

حسن ابراهيم حسن: (الدكتور).

ــ تاريخ الدولة الفاطمية (الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٥٨)

ــ عبيد الله المهدي، بالاشتراك مع الدكتور طه شرف (القاهرة ١٩٤٧).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

حسين بن فيض الهمدانى اليعبرى:

ـ الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن (٢٦٨ ـ ٦٢٦ هـ) بالاشتراك مع الدكتور حسن سليمان محمود (القاهرة ١٩٥٥).

الحمادى اليمنى: (أوساط القرن ٥ هـ)

ـ كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة (القاهرة ١٩٣٩).

ابن خلدون: (+ ٨٠٧ هـ)

ـ مقدمة ابن خلدون (المطبعة البهية المصرية، القاهرة)

ـ العبر وديوان المبتدأ والخبر (بولاق، القاهرة ١٢٨٤ هـ)

ابن خلكان: (+ ٦٨١ هـ)

ـ وفيات الأعيان (القاهرة ١٩٤٨)

الشهرستانى: (+ ٥٤٨ هـ)

ـ الملل والنحل، (القاهرة ١٩٤٨)

ابن طباطبا (٧٠١ هـ)

ـ الفخرى في الآداب السلطانية والدول الإسلامية (القاهرة ١٣٤٠ هـ)

الطبرى: (+ ٣١٠ هـ)

ـ تاريخ الأمم والملوك (القاهرة ١٩٤٩)

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

عارف تامر:

ـ القرامطة، أصلهم ونشأتهم وتاريخهم وحروبهم (بيروت ١٩٦٤)

ابن عبد ربه: (٤٣٩ هـ)

ـ العقد الفريد (القاهرة ١٩٤٨).

ابن عذارى: (أواخر القرن ٦ هـ)

ـ البيان المغرب في أخبار المغرب (دار الثقافة، بيروت)

عريب بن سعد: (٣٦٦ هـ)

ـ صلة تاريخ الطبري (المطبعة الحسينية بالقاهرة)

على حسنى الخربوطلي: (الدكتور)

ـ تاريخ العراق في ظل الحكم الأموي (القاهرة ١٩٥٩)

ـ المختار الثقفي (سلسلة أعلام العرب، القاهرة ١٩٦٣)

ـ الإسلام والخلافة (بيروت ١٩٧٠)

عمارة اليمنى: (٥٦٩ هـ)

ـ تاريخ اليمن، تحقيق الدكتور حسن سليمان محمود (القاهرة ١٩٥٧).

فان فلوتن: (ج.)

ـ السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات في عهد بني أمية، ترجمة الدكتور حسن إبراهيم حسن وزكي إبراهيم (القاهرة ١٩٣٤).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

فلهوزن: (يوليوس)

ـ الدولة العربية، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة (طبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة).

فيليب حتى: (الدكتور)

ـ تاريخ العرب، ترجمة مبروك نافع (القاهرة)

الماوردي: (+ ٤٥٠ هـ)

ـ الأحكام السلطانية (القاهرة ١٢٩٨ هـ)

محمد جمال الدين سرور: الدكتور

ـ النفوذ الفاطمي في جزيرة العرب (القاهرة ١٩٥٧)

ـ مصر في عصر الدولة الفاطمية (القاهرة، سلسلة ألف كتاب)

محمد بن محمد: اليماني:

ـ سيرة الحاجب جعفر بن علي وخروج المهدي من سلمية ووصوله إلى سجلماسة (نشرها الأستاذ إيڤانوف في مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة في ديسمبر ١٩٣٦).

المسعودي: (+ ٣٤٦ هـ)

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر (القاهرة)

الناصرى: (أبو العباس أحمد بن خالد)

ـ الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء سنة ١٩٥٤).

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

ابن النديم: (٣٨٣ هـ)

ـــ الفهرست (القاهر ١٣٤٨ هـ)

ابن نشوان الحميرى: (٥٧٣ هـ)

ـــ شرح رسالة الحور العين وتنبيه السامعين (القاهرة ١٩٤٨)

النعمان: (+ ٣٦٣ هـ) القاضي النعمان بن محمد

ـــ رسالة افتتاح الدعوة، تحقيق وداد القاضي (طبعة دار الثقافة، بيروت ١٩٧٠)

النوبختى: (+ ٢٠٢ هـ)

ـــ فرق الشيعة (استامبول ١٩٣١)

نيكلسون: (جون) Nicholson (John)

- An Account of the Fatemite Dynasty in Africa.

هبة الله الشيرازي: (٤٧٠ هـ)

ـــ سيرة المؤيد في الدين داعي الدعاة، نشرها الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩).

ياقوت: (+ ٦٢٦ هـ)

ـــ معجم البلدان (القاهرة ١٣٠٩ هـ)

© Muhammadanism — All Rights Reserved.

الفهرس

		صفحة
	مقدمة	٣
	تمهيد	٧
١	ــ فجر الحياة	١٣
٢	ــ الأستاذ والتلميذ في اليمن	١٦
٣	ــ الحارثان وصاحب البذر	٢٤
٤	ــ الرحلة التاريخية	٣١
٥	ــ في المغرب	٣٧
٦	ــ دار الهجرة والمجتمع الشيعي	٤١
٧	ــ الجهاد	٤٦
٨	ــ مؤسس الدولة الفاطمية	٥٢
٩	ــ مصرع أبي عبد الله	٥٨
١٠	ــ بين أبي عبد الله الشيعي وأبي مسلم الخراساني (دراسة مقارنة)	٦٥
	مصادر البحث	٧٣

© Muhammadanism — All Rights Reserved.